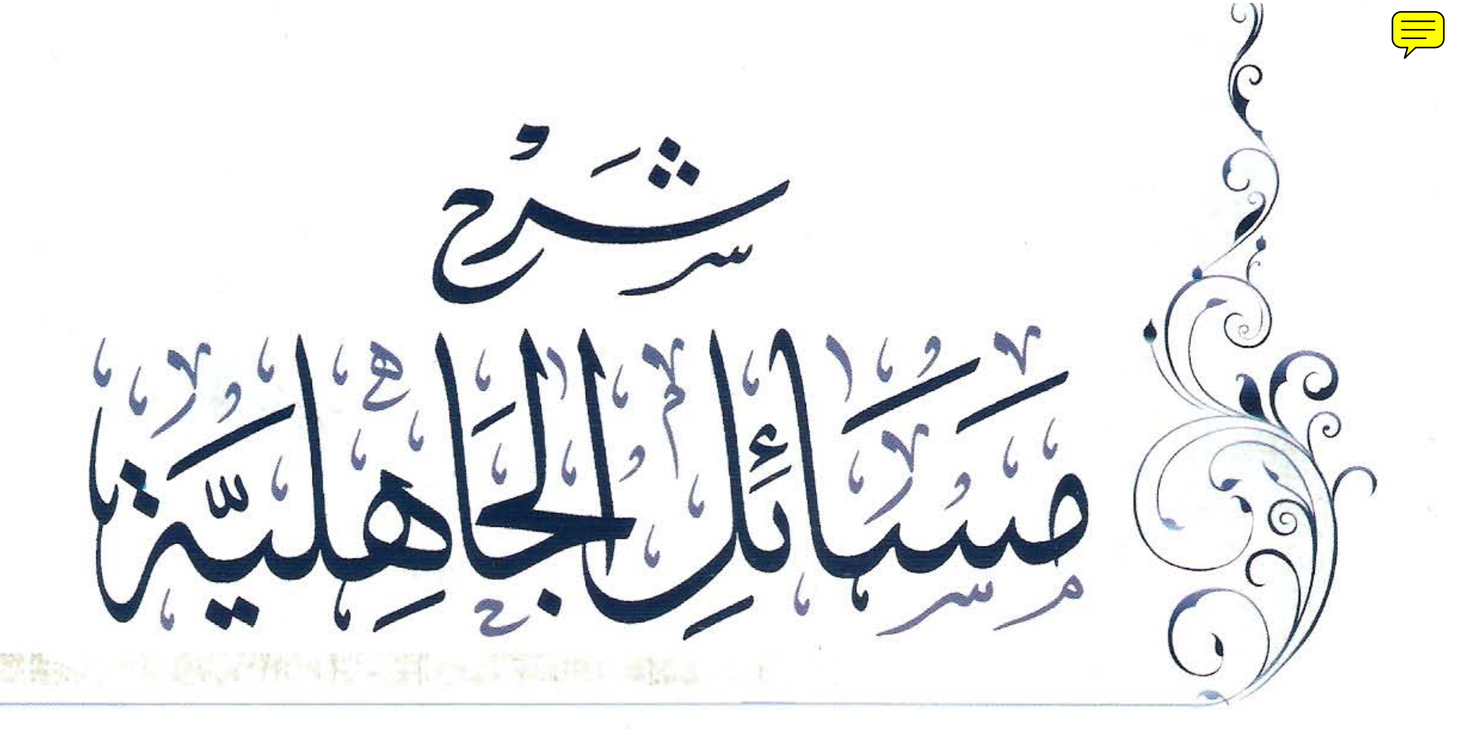


شرح مسائل الجاهلية

تأليف

أبي المعالي محمود شكري الآلوسي

تحقيق

أبي الحسن علي بن أحمد بن حسن الرازحي

دار الآثار
صنعاء

شرح

مسائل الجاهلية

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م

رقم الإيداع ٢٨٨/ ٢٠٠٧



www.dar-alathar.com

اليمن: صنعاء- شارع تعز- حي شميلة- مقابل جامع الخير- ص.ب ١٧١٩٠ فاكس ٦٠٣٢٥٦

(١ ٩٦٧+) هاتف: الإدارة ٦١٣٣٦٥ المكتبة ٦٣٣٧١٧ بريد إلكتروني ***info@dar-alathar.com***

- فرع صنعاء: الدائري الغربي- عمارة الخولاني-هاتف ٢٠٥٠٨٥
- فرع عدن: كريتر- بجوار مسجد أبان- هاتف ٢٦٦٩٨٦
- فرع المكلا: الشرج - أسفل المسجد الجامع من جهة القبلة-هاتف٣٠١١٢
- فرع دماج: دار الحديث - مقابل مسجد أهل السنة هاتف ٥١٩٣٢١

شرح

مسائل الجاهلية

تأليف

أبي المعالي محمود شكري الآلوسي

تحقيق

أبي الحسن علي بن أحمد بن حسن الرازحي

دار الآثار
صنعاء



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنه لا يخفى على كل صادق متمسك بدينه، معتز به، ما ابتلي به كثير من المسلمين من الهرولة إلى مشابهة الكافرين والتأسي بطرائقهم وسلوكهم، وذلك على مستويات كثيرة، حتى على مستوى اللباس، والزينة، وذلك جهلًا بدينهم واغترارًا ببهرجة أعدائهم، واتباعًا لأهوائهم، وبحثًا عن التطور والتقدم على حد زعمهم!!!

وإن هذا لأحد الأسباب التي استضعف واستذل بها معاشر المسلمين.

وكثير من الناس لا يعلم ما هي الأمور التي هي من خصال الكفار، التي ينبغي مخالفتها، والبعد عنها، والتحذير منها.

وهذا لعمر الله من الغفلة الشديدة عن الشرع الحنيف، أن تُصْبِح وتُمْسِي في مشابهة الكفار وأنت لا تدري!

وقد تواردت نصوص الكتاب والسنة بمخالفتهم في ذلك.

ولما كان الأمر له أهمية قصوى فقد انبرى لبيان هذه المسألة جماعة من أهل العلم قديمًا وحديثًا، فمن أولئك:

١) شيخ الإسلام ابن تيمية صنف كتابه النافع: "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم".

وله رحمه الله قصب السبق في بيان هذا الباب تفصيلاً لأدلته وتأصيلاً وتقعيدًا وبيانًا شافيًا، وكل من جاء بعده فهو مستفيد منه.

٢) الإمام الذهبي له رسالة صغيرة سماها: "تشبه الخسيس بأهل الخميس" وهي مطبوعة.

٣) الحافظ ابن حجر في كتاب له سماه: "القول الثبت في حكم صيام يوم السبت".[1]

٤) الحافظ الهيثمي عقد فصلاً في كتابه: "مجمع الزوائد" (٥/ ١٣١) بعنوان: "مخالفة أهل الكتاب في اللباس وغيره".

٥) الشيخ نجم الدين الغزي في كتابه: "حسن الشبيه فيما ورد في التشبيه"[2]

٦) أحمد الصديق الغماري في كتابه: (الاستنفار في غزو التشبه بالكفار) وكتابه مطبوع.

٧) الشيخ حمود التويجري في كتابه: "الإيضاح والتبيين فيما وقع به كثير من المسلمين من التشبه بالكافرين".

٨) الشيخ الألباني أفرد فصلاً طيبًا في كتابه: (جلباب المرأة المسلمة) صـ١٦١.٢١٢) ذكر فيه أدلة الكتاب والسنة في النهي عن مشابهة الكفار.

---

(١) انظر الفتح (١٠/ ٣٧٥).

(٢) مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق انظر: "فهرس مخطوطات الظاهرية" لمحمد رياض صالح (صـ٤٤١).

٩) ناصر عودة له رسالة جامعية سماها "الأحاديث الواردة في النصارى والنصرانية".

١٠) علي بن إبراهيم عجين له رسالة جامعية له سماها: "مخالفة الكفار في السنة النبوية".

١١) سهيل بن حسن بن عبد الغفار له رسالة "ماجستير سماها السنن والآثار في النهي عن التشبه بالكفار".

١٢) ميزر طوق بينار له رسالة ماجستير[١] سماها: "التحليل والتعليق على الأحاديث التي تمنع التشبه باليهود والنصارى".

١٣) ولي مبحث في هذا ضمن كتابي "الجامع في أحكام اللحية" ص٩٩-١١٤.

١٤) كتاب: "مسائل الجاهلية" لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب وهو كتاب صغير الحجم نفيس جدًّا احتوى على (١٢٩)[٢] مسألة من مسائل الجاهلية، خالفهم فيها رسول الله ﷺ ، وهذا الكتاب على صغر حجمه فقد نفع الله به كثيرًا بين العلماء وطلبة العلم، بل وعامة المسلمين، واعتنوا به حفظًا وتدريسًا وشرحًا، فهو من الكتب التي تدرس في مدارس ومساجد ومراكز أهل السنة في البلاد الإسلامية وقد اعتنى بشرحه جماعة من أهل العلم منهم:-

أ) العلامة محمود شكري الألوسي وهو كتابنا هذا سماه بـ "فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبدالوهاب" وهو شرح متوسط جيد، قصد التوسط، فقال: (أحببت أن أعلق شرحًا يُفَصِّلُ مجملها ويكشف معضلها، من غير إيجاز مخل، ولا إطناب ممل، مقتصرًا فيه على أوضح الأقوال، ومبينًا ما أورده من

---

(١) عن معهد العلوم الاجتماعية جامعة دوكوز أزمير تركيا (١٩٩٢) انظر: "مجلة الحكمة" لندن (٣٥٨/٧).

(٢) في بعض النسخ زيادة على هذا العدد ولكن هذا هو المعتمد، والله أعلم.

برهان ودليل). اهـ وهو رحمه الله ساق فيه ما تيسر له من الآيات والأحاديث والآثار المبينة لذلك، من غير تحرٍّ للصحيح من السقيم والقوي من الضعيف، فرأيت أن أضع عليها تعليقًا مختصرًا يبين صحيحها من سقيمها، مع أمور أخرى يأتي بيانها إن شاء الله.

ب) يوسف بن محمد السعيد، عمل على "مسائل الجاهلية" تحقيقًا على عدة مخطوطات، وشرحًا طيبًا مباركًا، تقدم بها لنيل درجة الماجستير في جامعة الإمام محمد ابن سعود، وقد طبع الكتاب طبعته الأولى سنة ١٤١٦هـ في مجلدين.

جـ) الشيخ العلامة صالح الفوزان، له شرح ألقاه دروسًا في المسجد، ثم فرغ ذلك الشرح من شرائطه، وطبع في مجلد طيب.

د) لي شرح متوسط توخيت فيه بيان تلك المسائل من خلال أدلة الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم سميته "فتح رب البرية بشرح مسائل الجاهلية".

هـ) نسأل الله أن ييسر تمامه، وينفع به كما نفع بأصله، وبما سبقه، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

عملي في هذا الكتاب

عملي على هذا الشرح المبارك في أمور:

١) خرَّجت أحاديثه وآثاره من مصادرها المعتمدة تخريجًا مختصرًا يفي بالمقصود بإذن الله تعالى.

٢) حكمت على أحاديثه وآثاره بما تستحقه، على حسب القواعد في علم الحديث الشريف.

٣) عزوت الأقوال إلى قائليها، والنقول التي نقلها المصنف إلى مصادرها،

على حسب ما يسره الله لي.

٤) اعتمدت في تحقيق هذه الرسالة على النسخة التي طبعت بإشراف الشيخ محب الدين الخطيب ﷺ، وصححت ما رأيته يحتاج إلى تصحيح في الحاشية، وأرمز لهذه النسخة عند الخلاف بـ «الخطيب».

٥) قدمت للرسالة، وعملت ترجمة مختصرة لصاحب الأصل وللشارح.

هذا ما يسره الله لي من خدمة على هذا الشرح، فما كان من صواب فهو من فضل ربي سبحانه وحده ومِنَّتِهِ عَلَيَّ، وما كان من خطإ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان من ذلك، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمالي خالصة لوجهه الكريم إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا أنسى هنا أن أشكر إخواني الأعزاء الأفاضل الذين يقومون بالمقابلة والتصحيح معي، أخص منهم بالذكر: الأخوين صادق بن أحمد الحاشدي، وفهد بن علي الخولاني، إذا ما قلت لهما عندي مقابلة قاما بتلبيت مطلبي، وكذا الإخوة الأعزاء الأفاضل الشرفاء: ردمانًا الحبيشي، وسعيدًا الزبيدي، وسالم بن شعيب الحديدي، ويسلمًا العطوي، ومحمدًا العمودي، وغيرهم ممن يعينونني، أقول لهم جميعًا: جزاكم الله خيرًا، وبارك لكم في أوقاتكم، ونفع بنا، وبكم، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

كتب: أبو الحسن علي بن أحمد الرازحي

منتصف ليلة الثلاثاء ٥رمضان

لسنة ١٤٢٥هـ بمكتبة دماج

والحمد لله رب العالمين

على حسب ما يسره الله لي.

٤) اعتمدت في تحقيق هذه الرسالة على النسخة التي طبعت بإشراف الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله، وصححت ما رأيته يحتاج إلى تصحيح في الحاشية، وأرمز لهذه النسخة عند الخلاف بـ "الخطيب".

٥) قدمت للرسالة، وعملت ترجمة مختصرة لصاحب الأصل وللشارح.

هذا ما يسره الله لي من خدمة على هذا الشرح، فما كان من صواب فهو من فضل ربي سبحانه وحده ومِنَّتِهِ عَلَيَّ، وما كان من خطإ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان من ذلك، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمالي خالصة لوجهه الكريم إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا أنسى هنا أن أشكر إخواني الأعزاء الأفاضل الذين يقومون بالمقابلة والتصحيح معي، أخص منهم بالذكر: الأخوين صادق بن أحمد الحاشدي، وفهد بن علي الخولاني، إذا ما قلت لهما عندي مقابلة قاما بتلبيت مطلبي، وكذا الإخوة الأعزاء الأفاضل الشرفاء: ردمانًا الحبيشي، وسعيدًا الزبيدي، وسالم بن شعيب الحديدي، ويسلمًا العطوي، ومحمدًا العمودي، وغيرهم ممن يعينونني، أقول لهم جميعًا: جزاكم الله خيرًا، وبارك لكم في أوقاتكم، ونفع بنا، وبكم، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

كتب: أبو الحسن علي بن أحمد الرازحي

منتصف ليلة الثلاثاء ٥رمضان

لسنة ١٤٢٥هـ بمكتبة دماج

والحمد لله رب العالمين

ترجمة مختصرة للشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله

نسبه: هو شيخ الإسلام العلامة أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب بن سليمان آل معظاد الوهيبي من بني حنظلة بن مالك التميمي.

مولده: ولد في العيينة -وهي تقع شمال غرب مدينة الرياض- من بلاد نجد سنة ١١١٥هـ

أخذه للعلم وشيوخه: حفظ القرآن قبل العاشرة من عمره، وأخذ عن كثير من العلماء، منهم:

١) والده عبد الوهاب بن سليمان.

٢) عبد الله بن إبراهيم بن سيف.

٣) محمد حياة السندي

٤) عبد الله بن سالم البصري

وغيرهم، وتلقى عنهم في النحو والصرف والحديث والفقه.

من طلابه: لما برز في العلم والدعوة تلقى عنه جماعة من الطلاب، منهم:

١) عبد العزيز بن محمد بن سعود

٢) سعود بن عبد العزيز بن محمد

٣) ولده حسين

٤) ولده علي

٥) ولده عبدالله

٦) ولده إبراهيم

٧) حفيده عبد الرحمن بن الحسن صاحب (فتح المجيد) وغيرهم كثير

من مؤلفاته: ألف كتبًا نافعة نفع الله بها بين أوساط المسلمين في جميع البلاد الإسلامية، من تلك المؤلفات:

١) كتاب التوحيد، وهو أجل كتبه.

٢) كشف الشبهات.

٣) الأصول الثلاثة.

٤) أصول الإيمان.

٥) مختصر زاد المعاد.

٦) مختصر السيرة.

٧) مسائل الجاهلية.

ثناء أهل العلم عليه: مدحه الإمام الصنعاني بقصيدة عصماء انتشرت في كثير من البلاد العربية، مطلعها:

سلام على نجد ومن حل في نجد ... وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

وفيها:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه ... يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي

وينشر جهرًا ما طوى كل جاهل ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادمًا مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد[١]

وقال عنه الشوكاني في "البدر الطالع" (٢/ ٧) وهو يتكلم عن بعض رسائله: (وهي رسائل جيدة مشحونة بأدلة الكتاب والسنة) وقال عن بعض أجوبته: (جوابات محررة مقررة محققة، تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين بالكتاب والسنة)

وقال ابن بدران في "المدخل" صـ ٤٤٧:

العالم الأثري والإمام الكبير، محمد بن عبد الوهاب، رحل لطلب العلم وأجازه محدثو العصر بكتب الحديث وغيرها، ولما امتلأ وِطَابُهُ[٢] من الآثار، وعلم السنة، وبرع في مذهب أحمد، أخذ ينصر الحق، ويحارب البدع، ويقاوم ما أدخله الجاهلون في هذا الدين.

وفاته: توفي رحمه الله في أواخر سنة (١٢٠٦)هـ عن إحدى وتسعين سنة، وهبها بتوفيق الله له في التعلم ونشر العلم والمعتقد الصحيح، والذب عنه، والجهاد، والدعوة فرحمه الله رحمة الأبرار، وقد أُفردت ترجمته وحياته بمصنفات كبيرة وصغيرة.

ومن تلك المؤلفات:

---

(١) وقد عزي إليه رجوعه عن هذه القصيدة، ولكن نازع في ذلك بعض أهل العلم، وقالوا: ليست للصنعاني، وإنما هي لولده. وأبان ذلك الشيخ العلامة سليمان بن سحمان، في رسالة مفردة سماها: "تبرئة الشيخين"، وقد انتهيت من تحقيقها -ولله الحمد- وهي قيد الإعداد للطبع.

(٢) الوطاب هو: الوعاء للسمن واللبن ونحوه، والمراد: امتلأ علمًا.

"سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب" لأمين سعيد.

و"سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب" لأحمد عبدالغفور العطار.

و"حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب" لحسين خلف وغيرها كثير وانظر أيضًا "المسك الأذفر" (١١١-١١٢) و"الأعلام" (٧/ ١٣٧) و"هداية العارفين" (٢/ ٣٥٠) و"معجم المؤلفين" (١٠/ ٢٦٩-٢٧٠).

ترجمة مختصرة للشارح

نسبه: هو أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن صلاح الدين بن محمود الخطيب الألوسي

ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

والألوسي نسبة إلى (ألوس) وهي قرية على الفرات قرب (عانات).

مولده: ولد في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة (١٢٧٣)هـ، في الرصافة ببغداد، سمي، وكني، ولقب، بما سبق حين ولادته، من قِبَلِ أبيه.

أسرته: والده كان عالمًا أديبًا بارعًا له مؤلفات، وجده هو الإمام محمود شهاب الدين صاحب "روح المعاني"

عمه هو نعمان خير الدين الألدمي صاحب كتاب "جلاء العينين في محاكمة الأحمدين" و"الآيات البينات".

أخذه للعلم: أخذ مبادئ العلوم العربية والدينية عن أبيه وتعلم عليه الخط، وأخذ عن جماعة من علماء بغداد منهم:

١) والده كما سبق

٢) عمه نعمان خير الدين

٣) إسماعيل بن مصطفى، وغيرهم، من العلماء، وأخذ في علوم شتى، كاللغة والسيرة، والتاريخ، والتفسير.

تدريسه: بعد أن صار ذا اطلاع واسع، ومادة غزيرة وصار من المعدودين في أهل التحقيق، تصدر للتدريس، فدرَّس في جامع عادل خاتون، وعيِّن مدرسًا

رسميًّا في جامع الحيدرية، ثم في جامع السيد سلطان علي، ثم عين مدرسًا في مدرسة مرجان، وجعل رئيس المدرسين، ونفع الله به وتخرَّج على يديه خلق كثير.

من مؤلفاته: ألف كتبًا كثيرة ونافعة، منها:

١) "غاية الأماني في الرد على النبهاني".

٢) فتح المنان وهو تتمة لـ: "منهاج التأسيس في الرد على داود بن جرجيس" للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن.

٣) شرح مسائل الجاهلية وهو كتابنا هذا المسمى بـ "فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب"[١].

٤) "بلوغ الأَرَب في أحوال العرب" ثلاثة مجلدات.

٥) "تاريخ نجد".

وفاته: لما دخلت العشر الأخيرة من رمضان سنة ١٣٤٢هـ أصيب بذات الرئة ولبث ثلاثة عشر يومًا يعاني من المرض، ثم توفي في اليوم الرابع من شوال ١٣٤٢هـ، وحضر الصلاة عليه جمع غفير من الناس، فرحمه الله رحمة واسعة.

ومن المصادر لترجمته رحمه الله:

١- كتاب "محمود شكري الألوسي سيرته ودراساته اللغوية" للشيخ محمد بهجة الأثري.

---

(١) ومما ينبغي التنبيه عليه: أنه رحمه الله في تفسير الآيات اعتمد على تفسير جده الألوسي المعروف: "روح المعاني".

٢- كتاب "أريج الثناء والعود في ترجمة مولانا أبي الثناء محمود".

٣- "جهود أبي الثناء الألوسي في الرد على الرافضة" للدكتور: عبدالله البخاري.

٤- "حلية البشر" (٣/ ١٤٥٠).

٥- "أعلام العراق" (٢١-٤٣).

٦- "هداية العارفين" (٢/ ٤١٨).

٧- "إيضاح المكنون" (١/ ٢٧و٢٢٣ و٥٨٦).

٨- "الأعلام" (٧/ ١٧٦).

٩- "معجم المؤلفين" (١٢/ ١٧٥).

١٠- "النهضة الإسلامية" (٢/ ٣٣) لمحمد رجب.

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة الشارح]

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِلدِّينِ الْمُبِينِ، وَأَنَارَ لَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِيْنَ.

أما بعد:

فَيَقُولُ الْعَبْدُ الْمُفْتَقِرُ إِلَى عَفْوِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ مَحْمُودُ شُكْرِي الأَلُوسِيُّ الْبَغْدَادِيُّ كَانَ اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ: إِنِّي قَدْ وَقَفْتُ عَلَى رِسَالَةٍ صَغِيرَةِ الْحَجْمِ كَثِيرَةِ الْفَوَائِدِ، تَشْتَمِلُ عَلَى نَحْوِ مِائَةِ مَسْأَلَةٍ[١]، مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي خَالَفَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْأُمِّيِّينَ وَالْكِتَابِيِّينَ[٢]، وَهِيَ أُمُورٌ ابْتَدَعُوهَا مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا أُخِذَتْ عَنْ نَبِيٍّ مِنَ النَّبِيِّينَ. أَلَّفَهَا الْإِمَامُ مُحْيِي السُّنَّةِ وَمُجَدِّدُ الشَّرِيعَةِ النَّبَوِيَّةِ، أَبُو عَبْدِاللهِ[٣] مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالْوَهَّابِ النَّجْدِيُّ الْحَنْبَلِيُّ تَغَمَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ. فَرَأَيْتُهَا فِي غَايَةِ الْإِيجَازِ، بَلْ كَادَتْ تُعَدُّ مِنْ قَبِيلِ الْإِلْغَازِ.

قَدْ عَبَّرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا بِعِبَارَةٍ مُجْمَلَةٍ، وَأَتَى فِيهَا بِدَلَائِلَ لَيْسَتْ بِمَشْرُوحَةٍ وَلَا مُفَصَّلَةٍ. حَتَّى إِنَّ مَنْ يَنْظُرُهَا، لَيَظُنُّ أَنَّهَا فِهْرِسُ كِتَابٍ، قَدْ عُدَّتْ فِيهِ الْمَسَائِلُ مِنْ غَيْرِ فُصُولٍ وَلَا أَبْوَابٍ، ولاشْتِمَالِهَا عَلَى تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمُهِمَّةِ الْآخِذَةِ بِيَدِ

---

(١) كأن النسخة التي وقف عليها المؤلف لا تزيد على هذا العدد، ولكن في النسخ المعتمدة بلغت المسائل (١٢٩) مسألة.

(٢) سيأتي بيان معناهما قريبًا إن شاء.

(٣) كنيته المعروفة: أبو الحسين كما سبق في ترجمته.

الْمُتَمَسِّكِ بِهَا إِلَى مَنَازِلِ الرَّحْمَةِ، أَحْبَبْتُ أَنْ أُعَلِّقَ عَلَيْهَا شَرْحًا يُفَصِّلُ مُجْمَلَهَا، وَيَكْشِفُ مُعْضَلَهَا، مِنْ غَيْرِ إِيجَازٍ مُخِلٍّ، وَلَا إِطْنَابٍ[1] مُمِلٍّ، مُقْتَصِرًا فِيهِ عَلَى أَوْضَحِ الْأَقْوَالِ، وَمُبَيِّنًا مَا أَوْرَدَهُ مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلِيلٍ، عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَ بِذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ. فَيَكُونُ سَبَبًا لِلثَّوَابِ، وَالْفَوْزِ يَوْمَ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَالْأَمْنِ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

(١) أي: تطويل

مقدمة المصنف رحمه الله

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ:

هَذِهِ مَسَائِلُ خَالَفَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ الْكِتَابِيِّينَ[١] وَالْأُمِّيِّينَ[٢] مِمَّا لَا غِنَى لِمُسْلِمٍ عَنْ مَعْرِفَتِهَا.

فَالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ[٣].

وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ[٤].

وَأَهَمُّ مَا فِيهَا وَأَشَدُّهُ خَطَرًا عَدَمُ إِيمَانِ الْقَلْبِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَإِنِ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ اسْتِحْسَانُ دِينِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ، تَمَّتِ الْخَسَارَةُ[٥] وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[العنكبوت:٥٢].

---

(١) هم أهل الكتاب، والمراد بهم: اليهود والنصارى، بالاتفاق، كما قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣١٢) طبع دار السلام.

(٢) جمع أمي، وهو من لا يكتب ولا يقرأ المكتوب.

(٣) هذا شطر بيت شعري من قصيدة طويلة يقال لها الدعدية، صدره:

ضدان لما استجمعا حسنًا

مختلف في قائله انظر: «التبيان في شرح الديوان» للعكبري (١/ ٢٢) و«شرح يوسف السعيد» (١/ ٨١).

(٤) هذا شطر بيت من قصيدة للمتنبي ولفظه:

نذيمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدها تتبين الأشياء

انظر: «ديوان المتنبي» (صـ ١٢٧).

(٥) وهي: الكفر.

١- دعاء الصالحين

الْمَسْأَلَةُ الأُولَى: أَنَّهُمْ يَتَعَبَّدُونَ بِإِشْرَاكِ الصَّالِحِينَ فِي دُعَاءِ اللهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ.

وَيَرَوْنَ ذَلِكَ مِنْ تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ، وَ

يُرِيدُونَ بِذَلِكَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللهِ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ ذَلِكَ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ الزُّمَرِ[٢-٣]: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾. وَ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس:١٨]. وَهَذِهِ أَعْظَمُ مَسْأَلَةٍ خَالَفَهُمْ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَتَى بِالْإِخْلَاصِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ دِينُ اللهِ الَّذِي لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ مَا يَسْتَحْسِنُونَهُ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ.[1]

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هِيَ الدِّينُ كُلُّهُ، وَلِأَجْلِهَا تَفَرَّقَ النَّاسُ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ، وَعِنْدَهَا وَقَعَتِ الْعَدَاوَةُ، وَلِأَجْلِهَا شُرِعَ الْجِهَادُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾ [البقرة:١٩٣].

٢- التفرق

(...الثَّانِيَةُ): أَنَّهُمْ مُتَفَرِّقُونَ.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وَيَرَوْنَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ مَهَانَةً وَرَذَالَةً.[١]

فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِالِاجْتِمَاعِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفْرِقَةِ فَقَالَ عَزَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران:١٠٢-١٠٣].

يُقَالُ: أَرَادَ سُبْحَانَهُ بِمَا ذَكَرَ مَا كَانَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِنَ الْحُرُوبِ الَّتِي تَطَاوَلَتْ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً، إِلَى أَنْ أَلَّفَ سُبْحَانَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِسْلَامِ، فَزَالَتِ الْأَحْقَادُ، قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ[٢].

وَكَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ آخِرَ الْحُرُوبِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ فُصِّلَ ذَلِكَ فِي «الكامل»[٣]... وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: أَرَادَ مَا كَانَ بَيْنَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنَ التَّنَازُعِ الطَّوِيلِ وَالْقِتَالِ الْعَرِيضِ، وَمِنْهُ حَرْبُ الْبَسُوسِ، كَمَا نُقِلَ عَنِ الْحَسَنِ[٤] ﷺ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[التغابن:١٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ النَّاصَّةِ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الِاسْتِبْدَادِ وَالتَّفَرُّقِ، وَعَدَمِ الِانْقِيَادِ وَالطَّاعَةِ، مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ.

---

(١) قال ابن الأثير: الأرذل من كل شيء: الرديء منه.

(٢) ضعيف جداً إلى ابن إسحاق. أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٦٥١) من طريق محمد بن حُمَيْد وهو متروك الحديث.

(٣) هو: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (١/ ٤١٧-٤٢٠).

(٤) لم أقف عليه عن الحسن، وانظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٦٥٠): ينظر: «تاريخ الطبري» و«الدر المنثور» عند الآية (١٠٢) من آل عمران.

٣- مخالفة ولي الأمر

(...الثَّالِثَةُ): وَعَدَمُ مُخَالَفَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، وَعَدَمُ الِانْقِيَادِ لَهُ عِنْدَهُمْ فَضِيلَةٌ.

وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهُ دِينًا.

فَخَالَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَأَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الْوُلَاةِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالنَّصِيحَةِ لَهُمْ، وَغَلَّظَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى وَأَعَادَ. وَهَذِهِ الثَّلَاثُ هِيَ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا مَا فِي "الصَّحِيحِ"[1] عَنْهُ ﷺ: «**يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ**».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ[2] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**». وَرَوَى أَيْضًا[3] عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللهُ! حَدِّثْنَا بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِ، سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «**أَنْ بَايَعْنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ**

---

(١) أصله في مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ لكن ليس فيه: «**وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**»، وهي زيادة صحيحة، جاءت عند مالك في "الموطإ" (٢/ ٩٩٠)، والبخاري في "الأدب" (٤٤٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٣٨٨)، وغيرهم، من طرق عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا به، وفيه الزيادة. وقد جاء الحديث بغير ذكر الزيادة المشار إليها عند البخاري (١٤٧٧)ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ .

(٢) البخاري (٧٠٥٤)، وأخرجه مسلم أيضا برقم (١٨٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) يعني البخاري (٧٠٥٥)، وأخرجه مسلم أيضًا (١٧٠٩) عقب رقم (١٨٤٠) من طرق أخرى عن عبادة ﷺ .

تَرَوْا كُفْرًا[١] بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ».

وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ[٢] فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ.

لَمْ يَقَعْ خَلَلٌ فِي دِينِ النَّاسِ أَوْ دُنْيَاهُمْ إِلَّا مِنَ الْإِخْلَالِ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ.

٤- التقليد

(...الرَّابِعَةُ): أَنَّ دِينَهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى أُصُولٍ، أَعْظَمُهَا التَّقْلِيدُ، فَهُوَ الْقَاعِدَةُ الْكُبْرَى لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ[٣]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ .[الزخرف:٢٣]

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٤].

فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا فِي رِبْقَةِ التَّقْلِيدِ[٤]، لَا يُحَكِّمُونَ

---

(١) انظر: "تلبيس إبليس" (ص٩٣) (دار المغني).

(٢) يانظر ما ذكرت منها في: "فتح رب البرية" المسألة (٣).

(٣) في الأصل: (يكون) والصواب المثبت كما في المطبوع.

(٤) قال في "الصحاح": الربقة في الأصل: عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها. اهـ انظر: "اللسان" و"الصحاح" مادة (ربق).

لَهُمْ رَأْيًا وَلَا يُشَغِّلُوْنَ فِكْرًا، فَلِذَلِكَ تَاهُوْا فِي أَوْدِيَةِ الْجَهَالَةِ. وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ فِي أَيِّ عَصْرٍ كَانَ.(١)

٥- الاقتداء بالعالم الفاسق أو العابد الجاهل

(...الخَامِسَةُ): الِاقْتِدَاءُ بِفَسَقَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَجُهَّالِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ، فَحَذَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة:٧٧].

---

(١) كتعصب بعض المتمذهبة لذلك المذهب الذي يسير عليه، قال الشوكاني في «فتح القدير» (١١٧/٢) قد صارت هذه المقالة التي قالتها الجاهلية يعني: قولهم ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[المائدة:١٠٤]. نصب المقلدة التي يتكئون عليها، إن دعاهم داعي الحق وصرخ بهم صارخ الكتاب والسنة، فاحتجاجهم بمن قلدوه ممن هو مثلهم في التعبد بشرع الله، مع مخالفة قوله لكتاب الله ولسنة رسوله، هو كقول هؤلاء، وليس الفرق إلا في مجرد العبارة اللفظية، لا في المعنى، الذي تدور عليه العبارة والاستفادة. انتهى.

وقال ابن الجوزي رحمه الله في «تلبيس إبليس» (ص٩٣): دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من طريقين:

أحدهما: التقليد للآباء والأسلاف.

الثاني: الخوض فيما لا يدرك غوره ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه؛ فأوقع أصحاب هذا القسم في فنون من التخليط، فأما الطريق الأول: فإن إبليس زين للمقلدين أن الأدلة قد تشتبه والصواب قد يخفى والتقليد سليم، وقد ضل في هذا الطريق خلق كثير، وبه هلاك عامة الناس؛ فإن اليهود والنصارى قلدوا آباءهم وعلماءهم فضلوا، وكذلك أهل الجاهلية.

واعلم أن العلة التي بها مدحوا التقليد بها يذم؛ لأنه إذا كانت الأدلة تشتبه والصواب يخفى، وجب هجر التقليد؛ لئلا يوقع في الضلال. اهـ

إِلَى آيَاتٍ أُخْرَى تُنَادِي بِبُطْلَانِ الِاقْتِدَاءِ بِالفُسَّاقِ، وَأَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْغَيِّ، وَذَلِكَ مِنْ سُنَنِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَطَرَائِقِهِمُ الْمُعْوَجَّةِ.

٦- الاحتجاج بما كان عليه الآباء بلا دليل

(... السَّادِسَةُ): الِاحْتِجَاجُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ.

مِنْ غَيْرِ تَحْكِيمِ الْعَقْلِ، وَالْأَخْذِ بِالدَّلِيلِ الصَّحِيحِ، وَقَدْ أَبْطَلَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ﴾...إلخ [طه:٤٩-٥٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[القصص:٣٦-٣٧]. وَقَالَ عَزَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[المؤمنون:٢٣-٢٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾[ص:٦-٧]. فَجَعَلُوا مَدَارَ احْتِجَاجِهِمْ عَلَى عَدَمِ قَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمْ، وَلَا عَرَفُوا مِنْهُمْ.

فَانْظُرْ إِلَى سُوءِ مَدَارِكِهِمْ وَجُمُودِ قَرَائِحِهِمْ[1]، وَلَوْ كَانَتْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، لَعَرَفُوا الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ، وَانْقَادُوا لِلْيَقِينِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيلِهِ، وَهَكَذَا أَخْلَافُهُمْ وَوُرَّاثُهُمْ قَدْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ.

٧- الاحتجاج على الحق بقلة أهله

(...السَّابع): الِاعْتِمَادُ عَلَى الْكَثْرَةِ.

وَالِاحْتِجَاجُ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالِاحْتِجَاجُ عَلَى بُطْلَانِ الشَّيْءِ بِقِلَّةِ أَهْلِهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ضِدَّ ذَلِكَ وَمَا يُبْطِلُهُ، فَقَالَ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١١٦-١١٧].

فَالكَثْرَةُ عَلَى خِلَافِ الْحَقِّ لَا تَسْتَوْجِبُ الْعُدُولَ عَنِ اتِّبَاعِهِ، لِمَنْ كَانَ لَهُ بَصِيرَةٌ وَقَلْبٌ، فَالْحَقُّ أَحَقُّ بِالِاتِّبَاعِ وَإِنْ قَلَّ أَنْصَارُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]. فَأَخْبَرَ اللهُ عَنْ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ قَلِيلُونَ، غَيْرَ أَنَّ الْقِلَّةَ لَا تَضُرُّهُمْ.

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ[2]

فَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ يَنْظُرُ إِلَى الدَّلِيلِ، وَيَأْخُذُ مَا يَسْتَنْتِجُهُ الْبُرْهَانُ. وَإِنْ قَلَّ الْعَارِفُونَ بِهِ الْمُنْقَادُوْنَ لَهُ، وَمَنْ أَخَذَ مَا عَلَيْهِ الْأَكْثَرُ، وَمَا أَلِفَتْهُ الْعَامَّةُ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ لِدَلِيلٍ، فَهُوَ مُخْطِئٌ، سَالِكٌ سَبِيلَ الْجَاهِلِيَّةِ، مَقْدُوحٌ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ.

---

(١) قال في «اللسان»: قريحة الإنسان: طبيعته التي جبل عليها. وجمعها قرائح؛ لأنها أول خلقته. اهـ مادة: قرح.

(٢) هذا البيت منسوب إلى السموءل اليهودي.

٨- الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريبًا

(...الثَّامِنَةُ): الِاسْتِدْلَالُ عَلَى بُطْلَانِ الشَّيْءِ بِكَوْنِهِ غَرِيبًا.

فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود:١١٦] وَمَعْنَى الْآيَةِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تَحْضِيضٌ فِيهِ مَعْنَى التَّفَجُّعِ، أَيْ: فَهَلَّا كَانَ ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أَيِ: الْأَقْوَامِ الْمُقْتَرِبَةِ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ: ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أَيْ: ذَوُو خَصْلَةٍ بَاقِيَةٍ مِنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ، أَوْ ذَوُو فَضْلٍ، عَلَى أَنْ يَكُونَ الْبَقِيَّةُ اسْمًا لِلْفَضْلِ وَالْهَاءُ[1] لِلنَّقْلِ، مِنْ هُنَا يُقَالُ: فُلَانٌ مِنْ بَقِيَّةِ الْقَوْمِ - أَيْ: مِنْ خِيَارِهِمْ -، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (فِي الزَّوَايَا خَبَايَا، وَفِي الرِّجَالِ بَقَايَا). ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الْوَاقِعِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، حَسْبَمَا ذُكِرَ فِي قَصَصِهِمْ، وَفَسَّرَ الْفَسَادَ بِالْكُفْرِ، وَمَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنَ الْمَعَاصِي. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ -أَيْ: وَلَكِنْ قَلِيلًا مِنْهُمْ أَنْجَيْنَا- لِكَوْنِهِمْ كَانُوا يَنْهَوْنَ.

٩- انخداع أهل القوة والحيلة بقوتهم وحيلتهم

(...التَّاسِعَةُ): الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْمَطْلُوبِ.

وَالِاحْتِجَاجُ بِقَوْمٍ أُعْطُوا مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ فِي الْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ؛ ظَنًّا أَنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ، فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ

---

(١) أي: هاء التأنيث في (بقية).

نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأحقاف:٢٤-٢٦].

وَمَعْنَى الْآيَةِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ أَيْ: قَوَّيْنَا عَادًا وَأَقْدَرْنَاهُمْ.

وَ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾، مَوْصُولَةٌ أَوْ مَوْصُوفَةٌ.

وَ ﴿إِنْ﴾ نَافِيَةٌ. أَيْ: فِي الَّذِي. أَوْ: فِي شَيْءٍ مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ مِنَ السَّعَةِ وَالْبَسْطَةِ وَطُولِ الْأَعْمَارِ وَسَائِرِ مَبَادِئِ التَّصَرُّفَاتِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾[الأنعام:٦]. وَلَمْ يَكُنِ النَّفْيُ بِلَفْظِ: ﴿مَا﴾ كَرَاهَةَ لِتَكْرِيرِ اللَّفْظِ وَإِنِ اخْتَلَفَ الْمَعْنَى. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ، وَيَعْرِفُوا لِكُلٍّ مِنْهَا مَا نِيطَتْ بِهِ مَعْرِفَتُهُ مِنْ فُنُونِ النِّعَمِ، وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى شُئُون مُنْعِمِهَا عَزَّوَجَلَّ وَيُدَاوِمُوْا عَلَى شُكْرِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾؛ حَيْثُ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فِي اسْتِمَاعِ الْوَحْيِ، وَمَوَاعِظِ الرُّسُلِ. ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ حَيْثُ لَمْ يَجْتَلُوْا بِهَا الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةِ الْمَرْسُومَةِ فِي صَحَائِفِ الْعَالَمِ. ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾؛ حَيْثُ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ -أَيْ: شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَ ﴿مِنْ﴾ مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تَعْلِيلٌ لِلنَّفْيِ. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ؛ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَهُ بِطَرِيقِ الِاسْتِهْزَاءِ، وَيَقُولُونَ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فَهَذِهِ الْآيَةُ تُبْطِلُ الِاحْتِجَاجَ بِقَوْمٍ أُعْطُوا مَا أُعْطُوا مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ، وَفِي الْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ؛ ظَنًّا أَنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ. أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمُ التَّنْزِيلُ، كَانُوا مِنَ الْقُوَّةِ، وَالْبَسْطَةُ فِي الْأَمْوَالِ، وَالْأَبْدَانِ، وَالْإِدْرَاكِ، وَسِعَةِ الْأَذْهَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ لِلْعَرَبِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ، وَمَعَ ذَلِكَ

ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ بِالْأَبَاطِيلِ، فَالتَّوْفِيقُ لِلْإِيمَانِ بِاللهِ وَرُسُلِهِ، وَالْإِذْعَانُ لِلْحَقِّ وَسُلُوكُ سَبِيلِهِ، إِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، لَا لِكَثْرَةِ مَالٍ، وَلَا لِحُسْنِ حَالٍ. وَمَنْ يُرِدِ الْحَقَّ، وَيُسْتَدَلُّ بِكَوْنِ مَنْ هُوَ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ لَمْ يَقْبَلْهُ، وَلَمْ يُحَكِّمْ عَقْلَهُ، وَيَتَّبِعْ مَا يُوصِّلُهُ إِلَيْهِ الدَّلِيلُ، فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَحَادَ عَنِ الْمَحَجَّةِ الْمَرْضِيَّةِ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

كَانَ الْيَهُودُ يَعْلَمُونَ مِنْ كُتُبِهِمْ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّ اللهَ سَيُرْسِلُ نَبِيًّا كَرِيمًا مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانُوا قَبْلَ بِعْثَتِهِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِبِعْثَتِهِ، وَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَرْسِلِ النَّبِيَّ الْمَوْعُودَ؛ إِرْسَالَهُ حَتَّى نَنْتَصِرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ[1]. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ [البقرة:٨٩] وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَفَرُوا بِهِ؛ حَسَدًا مِنْهُمْ أَنْ تَكُونَ النُّبُوَّةُ فِي الْعَرَبِ، وَهُمْ بِزَعْمِهِمْ ﴿أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم:٧٤]. وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ النُّبُوَّةَ

---

(١) يشير إلى ما أخرجه ابن إسحاق في "سيرته" كما في "السيرة" لابن هشام (١/ ٢١١) عن عاصم ابن عمر بن قتادة عن أشياخ منهم قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا؛ لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم من رجال يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]، وأخرجه الطبري في "تفسيره" وأبو نعيم في "الدلائل". (صـ٤٢-٤٤) والبيهقي في "الدلائل" (٢/ ٤٣٣-٤٣٥)، وسنده حسن كما قال شيخنا رحمه الله في "أسباب النزول".

وَالْإِيمَانَ بِهَا، فَضْلٌ مِنَ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَمِثْلُهَا أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[البقرة:١٤٦-١٤٧]. الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:١٤٥]. فَكِتْمَانُهُمُ الْحَقَّ وَعَدَمُ جَرْيِهِمْ عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِمْ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالِاعْتِقَادِ: أَنَّ فَضْلَ اللهِ مَقْصُورٌ عَلَيْهِمْ؛ لَا يَتَعَدَّاهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ.

وَآيَةُ الْأَنْعَامِ [١٩-٢٠] مُوَافِقَةٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ لَفْظًا وَمَعْنًى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٠- انخداع أهل الثروة بثروتهم

(...الْعَاشِرَةُ): الِاسْتِدْلَالُ بِعَطَاءِ الدُّنْيَا عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[سبأ:٣٤-٣٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص:٤٦-٥٠]. وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۞ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [القصص:٧٦-٧٨].

فَقَدْ كَفَانَا اللهُ تَعَالَى إِبْطَالَ هَذِهِ الْخَصْلَةِ؛ بِقَوْلِهِ: فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[سبأ:٣٦]. فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾...إلخ [القصص:٧٨].

فَعَلِمْنَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ وَرِضَا اللهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِطَاعَتِهِ وَالِانْقِيَادِ لِرُسُلِهِ، وَالْإِذْعَانُ لِلْحَقِّ بِاتِّبَاعِ الْبُرْهَانِ، وَأَمَّا كَثْرَةُ الْمَالِ، وَسِعَةُ الرِّزْقِ، وَعَيْشُ الرَّخَاءِ، فَلَا دَلِيلَ فِيهِ عَلَى نَجَاةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا تُعَادِلُ

عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى مَنْ عَصَاهُ شَرْبَةَ مَاءٍ،[١] قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف:٣٣]. وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ[٢]:

كَمْ عَالِمٍ عَالِمٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقًا[٣]

وَمِمَّا يُنْسَبُ لِبَعْضِ الْأَكَابِرِ:

رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ فِينَا ... لَنَا عِلْمٌ وَلِلْأَعْدَاءِ مَالُ

فَإِنَّ الْمَالَ يَفْنَى عَنْ قَرِيبٍ ... وَإِنَّ الْعِلْمَ بَاقٍ لَا يَزَالُ

وَالشَّوَاهِدُ كَثِيرَةٌ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ كَوْنِ زَخَارِفِ الدُّنْيَا، مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى قُرْبِ مَنْ حَازَهَا مِنَ اللهِ، وَقَبُولِهِ عِنْدَهُ، فَقَوْلٌ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ، وَمَذْهَبٌ بَاطِلٌ، لَا يَنْبَغِي لِمَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ أَنْ يُعَوِّلَ عَلَيْهِ.

---

(١) يشير إلى ما أخرجه الترمذي (٢٤٢٢) وغيره عن سهل بن سعد مرفوعًا: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء**» وله طرق وشواهد تقويه عن سهل، ذكرها المعلق على "مختصر المستدرك" (٦/ ٢٩٥١) وما بعدها، وشواهده تقويه، راجعها في المصدر السابق، وكذا في "الصحيحة" (٦٨٦) و(٩٤٣) والحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح لغيره، والله أعلم.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق الريوندي ويقال: الراوندي. كان قبل إلحاده من أهل الاعتزال والرفض، وصنف في ذلك نحوًا من أربعين كتابًا، ثم ألحد في الدين وصنف في الطعن في الشريعة (١٢) كتابًا، قال الذهبي بعد ذكره لبعض ما له من الإلحاد والكفر: (لعن الله الذكاء بلا إيمان ورضي الله عن البلادة مع التقوى). توفي هذا الزنديق سنة (٢٩٨). انظر ترجمته في: "المنتظم" (١٣/ ١٠٨) و"الوافي بالوفيات" (٨/ ٢٣٢) و"السير" (١٤/ ٥٩).

(٣) وبعده:

هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقًا

١١- الاستخفاف بالحق لضعف أهله

(...الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ): الِاسْتِدْلَالُ عَلَى بُطْلَانِ الشَّيْءِ؛ بِأَخْذِ الضُّعَفَاءِ

بِهِ وَضَعْفِ فَهْمِ مَنْ أَخَذَ بِهِ، عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ قَوْمِ نُوحٍ؛ كَمَا حَكَاهُ عَنْهُمْ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء:١٠٥-١١٥].

فَانْظُرْ إِلَى قَوْمِ نُوحٍ كَيْفَ اسْتَنْكَفُوا مِنِ اتِّبَاعِ نَبِيِّهِمْ؛ لِسَبَبِ اتِّبَاعِ الضُّعَفَاءِ لَهُ؛ وَذَلِكَ لِكَوْنِ مَطْمَحِ أَنْظَارِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِلَّا لَوْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُمْ؛ لَاتَّبَعُوا الْحَقَّ أَيْنَمَا وَجَدُوهُ، وَلَكِنْ لِجَاهِلِيَّتِهِمْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ؛ لِاتِّبَاعِ شَهَوَاتِهِمْ. وَانْظُرْ إِلَى هِرَقْلَ[1] لَمَّا كَانَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ، اعْتَقَدَ اتِّبَاعَ الضُّعَفَاءِ دَلِيلًا عَلَى الْحَقِّ، فَقَالَ فِي جُمْلَةِ مَا سَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.[2]

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) ملك الروم.

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان صخر بن حرب ﵁.

مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٥-٢٧].

١٢- وَصْمُ أنصار الحق بما ليس فيهم

(...الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ): مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ: رَمْيُ مَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ بِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ، وَطَلَبِ الدُّنْيَا.

فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ نَبِيِّهِمْ، الَّذِي حَكَاهُ اللهُ عَنْ نُوحٍ، فِي الْآيَةِ الْأُولَى الْمَذْكُورَةِ، فِي الْمَسْأَلَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ[1] بِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۞ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء:١١١-١١٣].

وَمَقْصُودُهُمْ أَنَّ أَتْبَاعَكَ فُقَرَاء، آمَنُوا بِكَ؛ لِيَنَالُوا مَقْصَدَهُمْ مِنَ الْعَيْشِ، لَا أَنَّ إِيمَانَهُمْ كَانَ لِدَلِيلٍ يَقْتَضِي صِحَّةَ مَا جِئْتَ بِهِ؛ فَلِهَذَا رَدَّ عَلَيْهِمْ بِمَا رَدَّ.

١٣- التكبر عن نصرة الحق؛ لأن أنصاره ضعفاء

(...الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ): مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ الْإِعْرَاضُ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْحَقِّ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ الضُّعَفَاءُ.

تَكَبُّرًا وَأَنَفَةً، فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن

---

(١) وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه مسلم (٢٤١٣)، عن سعدِ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه فيَّ نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام:٥٢] قال: نزلت في ستَّةٍ: أنا، وابن مسعودٍ منهم، وكان المشركون قالوا له: تدني هؤلاء.

شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٢-٥٣].

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢] وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَحَاصِلُ الرَّدِّ: أَنَّ مَنْ آمَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ، إِنَّمَا كَانَ إِيمَانُهُ عَنْ بُرْهَانٍ، لَا كَمَا زَعَمَ خُصُومُهُمْ، وَلَسْتَ أَنْتَ بِمَسْئُوْلٍ عَنْهُمْ، وَلَا هُمْ بِمَسْئُوْلِيْنَ عَنْ حِسَابِكَ، فَطَرْدُهُمْ عَنْ بَابِ الْإِيمَانِ مِنَ الظُّلْمِ بِمَكَانٍ.

١٤- استدلالهم على بطلان الشيء؛ بكونهم أولى به لو كان حقًّا

(...الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ): الِاسْتِدْلَالُ عَلَى بُطْلَانِ الشَّيْءِ؛ بِكَوْنِهِمْ أَوْلَى بِهِ لَوْ كَانَ حَقًّا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ .[الأحقاف:١١] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٠].

١٥- جهلهم بالجامع والفارق

(...الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ): الِاسْتِدْلَالُ بِالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ، وَإِنْكَارُ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ، وَجَهْلُهُمْ بِالْجَامِعِ وَالْفَارِقِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ

هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[المؤمنون:٢٤-٢٥] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[المؤمنون:٢٣].

شُرُوعٌ فِي بَيَانِ إِهْمَالِ النَّاسِ، وَتَرْكِهِمُ النَّظَرَ وَالِاعْتِبَارَ؛ فِيمَا عَدَّدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ النِّعَمِ، قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَنْ خَافَهُمْ مِنْ زَوَالِهَا، وَفِي ذَلِكَ تَخْوِيفٌ لِقُرَيْشٍ، وَتَقْدِيمُ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السلام عَلَى سَائِرِ الْقِصَصِ؛ مِمَّا لَا يَخْفَى وَجْهُهُ. فَقَالَ مُتَعَطِّفًا عَلَيْهِمْ وَمُسْتَمِيلًا لَهُمْ إِلَى الْحَقِّ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَيِ: اعْبُدُوهُ وَحْدَهُ. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ اسْتِئْنَافٌ مَسُوقٌ لِتَعْلِيلِ الْعِبَادَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الْهَمْزَةُ: لِإِنْكَارِ الْوَاقِعِ وَاسْتِقْبَاحِهِ، وَالْفَاءُ: لِلْعَطْفِ عَلَى مُقَدَّرٍ يَقْتَضِيهِ الْمُقَامُ، أَتَعْرِفُونَ ذَلِكَ، أَيْ: مَضْمُونَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[المؤمنون:٢٣] عَذَابَهُ تَعَالَى، الَّذِي يَسْتَوْجِبُهُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ؛ مِنْ تَرْكِ عِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ، وَإِشْرَاكِكُمْ بِهِ عزوجل فِي الْعِبَادَةِ؛ مَا لَا يَسْتَحِقُّ الْوُجُودَ -لَوْلَا إِيجَادُ اللهِ إِيَّاهُ- فَضْلًا عَنِ اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ، فَالْمُنْكَرُ: عَدَمُ الِاتِّقَاءِ، مَعَ تَحَقُّقِ مَا يُوجِبُهُ. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أَيِ: الْأَشْرَافُ. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وَصَفَ الْمَلَأَ بِالْكُفْرِ، مَعَ إِشْرَاكِ الْكُلِّ فِيهِ؛ لِلْإِيذَانِ بِكَمَالِ عراقتهم وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ فِيهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا ذَمَّهُمْ، دُونَ التَّمَيُّزِ عَنْ أَشْرَافٍ آخَرِينَ آمَنُوا بِهِ عليه السلام، أَوْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ؛ كَمَا يُفْصِحُ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود:٢٧] وَهَذَا الْقَوْلُ صَدَرَ مِنْهُمْ لِعَوَامِّهِمْ.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أَيْ: فِي الْجِنْسِ وَالْوَصْفِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، وَصَفُوهُ عليه السلام؛ بِذَلِكَ مُبَالَغَةً فِي وَضْعِ رُتْبَتِهِ الْعَالِيَةِ وَحَطِّهَا عَنْ مَنْصِبِ النُّبُوَّةِ، وَصَفُوهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[المؤمنون:٢٤]؛ إِغْضَابًا لِلْمُخَاطَبِينَ عَلَيْهِ عليه السلام وَإِغْرَاءً لَهُمْ عَلَى مُعَادَاتِهِ. وَالتَّفَضُّلُ: طَلَبُ الْفَضْلِ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ السِّيَادَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يُرِيدُ أَنْ يَسُودَكُمْ وَيَتَقَدَّمَكُمْ؛ بِادِّعَاءِ الرِّسَالَةِ

مَعَ كَوْنِهِ مِثْلَكُمْ.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾[المؤمنون:٢٤] بَيَانٌ لِعَدَمِ رِسَالَةِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ عَلَى زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ بَعْدَ تَحْقِيقِ بَشَرِيَّتِهِ ﷺ ، أَيْ: وَلَوْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى إِرْسَالَ الرَّسُولِ لَأَرْسَلَ رُسُلًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿ لَأَنزَلَ ﴾[المؤمنون:٢٤]؛ لِأَنَّ إِرْسَالَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِطَرِيقِ الْإِنْزَالِ.

﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون:٢٤] هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الْكَلَامِ الْمُتَضَمِّنِ الْأَمْرَ -بِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ خَاصَّةً، وَالْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ- أَيْ: مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ فِي آبَائِنَا الْمَاضِينَ قَبْلَ بَعْثَتِهِ ﷺ وَقَدَّرَ الْمُضَافَ؛ لِأَنَّ عَدَمَ السَّمَاعِ لِكَلَامِ نُوحٍ الْمَذْكُورِ لَا يَصْلُحُ لِلرَّدِّ، فَإِنَّ السَّمَاعَ لِمِثْلِهِ كَانَ فِي الْقَبُولِ.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾[المؤمنون:٢٥]، أَيْ: مَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جُنُونٌ أَوْ جِنٌّ يُخَبِّلُونَهُ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ مَا يَقُولُ: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[المؤمنون:٢٥] فَاحْتَمِلُوهُ وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ، وَانْتَظِرُوا لَعَلَّهُ يُفِيقُ مِمَّا هُوَ فِيهِ، مَحْمُولٌ عَلَى مَرَامِيِّ أَحْوَالِهِمْ فِي الْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ، وَإِضْرَابِهِمْ عَمَّا وَصَفُوهُ ﷺ بِهِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَإِرَادَةِ التَّفَضُّلِ إِلَى وَصْفِهِ بِمَا تَرَى، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ ﷺ أَرْجَحُ النَّاسِ عَقْلًا وَأَرْزَنُهُمْ قَوْلًا، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَنَاقُضِ مَقَالَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ، قَاتَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنَّى يُؤْفَكُونَ. وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ وَالصَّحِيحُ، وَالْجَامِعُ وَالْفَارِقُ مُفَصَّلٌ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ[1].

فَبَيَّنَ الرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- وَسَائِرُ النَّاسِ مُشَابَهَةً مِنْ جِهَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَلَوَازِمِهَا الضَّرُورِيَّةِ، فَيَصِحُّ حِينَئِذٍ قِيَاسُ الرُّسُلِ عَلَى غَيْرِهِمْ فِيهَا، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ

---

(١) من أجمع ما صنف في بيان هذه المسألة كتاب: «القياس في الشرع الإسلامي» مجموع من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، وقد طبعته المطبعة السلفية، وكتاب: «تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٠٦)، وما بعدها إلى آخر الكتاب.

تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[الكهف:١١٠]. وَبَيْنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ فُرُوقٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى اصْطَفَاهُمْ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَوَحْيِهِ وَخَصَّهُمْ بِذَلِكَ، فَلَا يُقَاسُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِهِمْ حِينَئِذٍ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، كَمَا لَا يَصِحُّ قِيَاسُ غَيْرِهِمْ بِهِمْ فِي سَائِرِ خَصَائِصِهِمْ، الَّتِي فُصِّلَتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَالجَاهِلِيَّةُ لَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَلَا عَرَفُوا الْجَامِعَ وَلَا الْفَارِقَ؛ كَمَا سَمِعْتَ مِنْ قِيَاسِهِمُ الرُّسُلَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهَكَذَا أَتْبَاعُهُمُ الْيَوْمَ وَمَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ.

١٦- الغلو في الصالحين

(...السَّادِسَةَ عَشْرَةَ): الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة:٣٠-٣٢].

فَاتِّخَاذُ أَحْبَارِ النَّاسِ أَرْبَابًا، يُحَلِّلُونَ وَيُحَرِّمُونَ[(١)]، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي الْكَوْنِ،

---

(١) انظر حديث عدي بن حاتم الآتي ذكره -إن شاء الله- في المسألة (٤٤).

فائدة: قال العلامة المعلمي في "التنكيل" (١/ ٦): من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل، ومن أمضى أسلحته أن يرمي الغالي كل من يحاول رده إلى الحق؛ ببغض أولئك الأفاضل ومعاداتهم. اهـ

وَيُنَادُونَ فِي دَفْعِ ضُرٍّ، أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، مِنْ جَاهِلِيَّةِ الْكِتَابِيِّينَ، ثُمَّ سَرَى إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ جَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِ، وَلَهُمُ الْيَوْمَ بَقَايَا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...»[1] الْحَدِيث. حَتَّى نَرَى غَالِبَ النَّاسِ الْيَوْمَ مُعْرِضِينَ عَنِ اللهِ، وَعَنْ دِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ، مُتَوَغِّلِينَ فِي الْبِدَعِ، تائهين فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ، مُعَادِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنْ قَامَ بِهِمَا، فَأَصْبَحَ الدِّينُ مِنْهُمْ فِي أَنِينٍ، وَالْإِسْلَامُ فِي بَلَاءٍ مُبِينٍ. وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

١٧- الاعتذار بعدم الفهم

(...السَّابِعَةَ عَشْرَةَ): اعْتِذَارُهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْوَحْيِ بِعَدَمِ الْفَهْمِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٧-٨٨]. ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٥٥]. الْغُلْفُ: جَمْعُ أَغْلَفَ كَأَحْمَرَ وَحُمْرٍ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفْقَهُ.

وَأَصْلُهُ ذُو الْقُلْفَةِ الَّذِي لَمْ يُخْتَنْ، أَوْ جَمْعُ غِلَافٍ، وَيُجْمَعُ عَلَى (غُلُفٍ) بِضَمَّتَيْنِ أَيْضًا[2]، وَأَرَادُوا عَلَى الْأَوَّلِ: قُلُوبُنَا مُغَشَّاةٌ؛ بِأَغْشِيَةٍ خَلْقِيَّةٍ؛ مَانِعَةٍ عَنْ نُفُوذِ مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضًا (٧٣٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، سنن بسنن، حتى لو دخلوا جحر ضَبٍّ لدخلتموه» قيل: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!».

(٢) قال في «النهاية»: قلب أغلف: أي: عليه غشاء عن سماع الحق، وقبوله. اهـ انظر: «تهذيب اللغة» و«اللسان» مادة: (غلف).

جِئْتَ بِهِ فِيهَا. وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت:٥] قَصَدُوا بِهِ إِقْنَاطَ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الإِجَابَةِ، وَقَطْعِ طَمَعِهِ عَنْهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مَعْنَى مُغَشَّاةٌ بِعُلُومٍ مِنَ التَّوْرَاةِ؛ تَحْفَظُهَا أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا مَا تَأْتِي بِهِ، أَوْ بِسَلَامَةٍ مِنَ الْفِطْرَةِ كَذَلِكَ[1]. وَعَلَى الثَّانِي: أَنَّهَا أَوْعِيَةُ الْعِلْمِ، فَلَوْ كَانَ مَا تَقُولُهُ حَقًّا وَصِدْقًا لَوَعَتْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ[2] وَقَتَادَةُ[3] وَالسُّدِّيُّ[4]: أَوْ مَمْلُوءَةٌ عِلْمًا؛ فَلَا تَسَعُ بَعْدُ شَيْئًا، فَنَحْنُ مُسْتَغْنُونَ بِمَا عِنْدَنَا مِنْ غَيْرِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَرَادُوا أَنَّهَا أَوْعِيَةُ الْعِلْمِ، فَكَيْفَ يَحِلُّ لَنَا اتِّبَاعُ الْأُمِّيِّ. وَلَا يَخْفَى بُعْدُهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۞ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۞ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود:٨٩-٩١]. وَهَذِهِ الْآيَةُ بِمَعْنَى الْآيَةِ الْأُولَى. وَقَدْ كَذَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي دَعْوَاهُمْ هَذِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَذَكَرَ أَنَّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ الْفَهْمِ؛ إِنَّمَا هُوَ الطَّبْعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِكُفْرِهِمْ[5]، لَا الْقُصُورُ فِي الْبَيَانِ

---

(١) انظر: "تفسير الطبري" (٢/ ٢٣٠) و"الدر المنثور"، في سورة البقرة عند الآية (٨٨).

(٢) هو عبدالله بن عباس والأثر عنه أخرجه ابن جرير (٢/ ٢٣١) وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١/ ١٧٠) من طريق بشر بن عُمَارَةَ عن أبي رَوْقٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وهذا سند ضعيف؛ فبشر ضعيف، والضحاك هو: ابن مزاحم، لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكر ابن أبي حاتم في "تفسيره" بأنه من طريق معمر عن قتادة، وفي رواية معمر عن قتادة ضعف، وقتادة هو ابن دِعامة السدوسي أحد الحفاظ الأثبات.

(٤) علقه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١/ ١٧٠). وله عن السدي سند ذكره في المقدمة (ص١٥)، وهو سند لا بأس به إن شاء الله. والسدي هو إسماعيل بن عبد الرحمن صدوق في الحديث، ملفّق في بعض أسانيد التفسير.

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:١٥٥].

وَالتَّفَهُّمِ. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ[1]:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ صُورَتَهُ   وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ

١٨- إنكارهم الحق الذي لا تقول به طائفتهم

(...الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ): مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ: أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنَ الْحَقِّ إِلَّا مَا تَقُولُ بِهِ طَائِفَتُهُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

وَمَعْنَى: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٩١] أَيْ: نَسْتَمِرُّ عَلَى الْإِيمَانِ بِالتَّوْرَاةِ وَمَا فِي حُكْمِهَا؛ وَمُرَادُهُمْ بِمَا أُنْزِلَ فِي تَقْرِيرِ حُكْمِهَا، وَمُرَادُهُمْ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ[2]:

إِمَّا أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ الظَّاهِرُ، -وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ بِالْقُرْآنِ كَانَ بَغْيًا وَحَسَدًا؛ عَلَى نُزُولِهِ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ-.

وَإِمَّا أَنْفُسُهُمْ.

وَمَعْنَى (الْإِنْزَالِ عَلَيْهِمْ): تَكَلُّفُهُمْ بِمَا فِي الْمُنَزَّلِ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وَذُمُّوا عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّعْرِيضِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ، وَدَسَائِسُ الْيَهُودِ مَشْهُورَةٌ، أَوْ لِأَنَّهُمْ تَأَوَّلُوا الْأَمْرَ الْمُطْلَقَ الْعَامَّ، وَنَزَّلُوهُ عَلَى خَاصٍّ، هُوَ الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا هُوَ دَيْدَنُهُمْ فِي تَأْوِيلِ الْكِتَابِ بِغَيْرِ الْمُرَادِ مِنْهُ.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:٩١] أَيْ: هُمْ مُقَارِنُونَ لِحَقِيقَتِهِ؛

---

[1] هو: أبو العلاء المعري.

[2] في قوله: (علينا).

أَيْ: عَالِمُونَ بِهَا. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ﴾[البقرة:٩١]؛ لِأَنَّ كُتُبَ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَالتَّصْدِيقُ لَازِمٌ لَا يَنْتَقِلُ، وَقَدْ قَرَّرَتْ مَضْمُونَ الْخَبَرِ؛ لِأَنَّهَا كَالِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا تَضَمَّنَتْ رَدَّ قَوْلِهِمْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا؛ حَيْثُ إِنَّ مَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بِمَا وَافَقَ التَّوْرَاةَ لَمْ يُصَدِّقْ بِهَا.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٩١] أَمْرٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، تَبْكِيتًا لَهُمْ(١)؛ حَيْثُ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ مَعَ ادِّعَاءِ الْإِيمَانِ بِالتَّوْرَاةِ، وَهِيَ لَا تَسُوغُهُ(٢).

١٩- التمسك بخرافات السحر

(...التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ): مِنْ خِصَالِهِمُ الِاعْتِيَاضُ(٣) عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى بِكُتُبِ السِّحْرِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠١-١٠٢]. وَالْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ

---

(١) أي: تقريعًا وتوبيخًا.

(٢) أي: لا تجيز ذلك.

(٣) أي: الاستبدال.

الْآيَةِ فِي التَّفَاسِيرِ مَشْهُورٌ. وَهَذِهِ الْخَصْلَةُ الْجَاهِلِيَّةُ مَوْجُودَةٌ الْيَوْمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، لَاسِيَّمَا مَنِ انْتَسَبَ إِلَى الصَّالِحِينَ، وهو عَنْهُمْ بِمَرَاحِلَ، فيتعاطى الْأَعْمَالَ السِّحْرِيَّةِ، مِنْ إِمْسَاكِ الْحَيَّاتِ، وَضَرْبِ السِّلَاحِ، وَالدُّخُولِ فِي النِّيرَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا وَرَدَتِ الشَّرِيعَةُ بِإِبْطَالِهِ، فَأَعْرَضُوا وَنَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاتَّبَعُوا مَا أَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ شَيَاطِينُهُمْ، وَادَّعُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْكَرَامَاتِ، مَعَ أَنَّ الْكَرَامَةَ لَا تَصْدُرُ عَنْ فَاسِقٍ[1]، وَمَنْ يَتَعَاطَى تِلْكَ الْأَعْمَالَ فِسْقُهُمْ ظَاهِرٌ لِلْعَيَانِ، وَلِذَا اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا ولهوًا، وَفِي مِثْلِهِمْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٤].

٢٠- التناقض في الانتساب

(...الْعِشْرُونَ): تَنَاقُضُهُمْ فِي الِانْتِسَابِ؛ فَيَنْتَسِبُونَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَإِلَى الْإِسْلَامِ، مَعَ إِظْهَارِهِمْ تَرْكَ

ذَلِكَ، وَالِانْتِسَابَ إِلَى غَيْرِهِ.

٢١- صرف النصوص عن مدلولاتها

(...الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرُونَ): تَحْرِيفُ كَلَامِ اللهِ مِنْ بَعْدِمَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

وَلَكَمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ!! تَرَاهُ يَصْرِفُ النُّصُوصَ وَيُؤَوِّلُهَا إِلَى مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ الْأَهْوَاءِ[2].

---

(١) انظر: «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية (صـ١٦٠) وصـ (١٥٠) وما بعدها.

(٢) وتجد ذلك كثيرًا في تقريرات أهل الأهواء من المتمذهبة والمتحزبة.

٢٢- تحريف كتب الدين

(...الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ): تَحْرِيفُ الْعُلَمَاءِ لِكُتُبِ الدِّينِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٨-٧٩]. وَمَنْ نَظَرَ إِلَى قُضَاةِ هَذَا الزَّمَانِ[١]، وَمَا تَلاعَبُوا بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَصَرْفِ[٢] النُّصُوصِ إِلَى مَا تَهْوَاهُ أَنْفُسُهُمْ، وَتَبْدِيلِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِهِ؛ بِمَا يَنَالُونَهُ مِنَ الرُّشَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ، تَبَيَّنَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بَحْرٍ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَهَكَذَا بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ وَغُلَاةِ الْقُبُورِ، وَقَدْ بُيِّنَ حَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

٢٣- الانصراف عن هداية الدين إلى ما يخالفها

(...الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ): وَهِيَ مِنْ أَعْجَبِ الْمَسَائِلِ وَالْخِصَالِ؛ مُعَادَاةُ الدِّينِ -الَّذِي انْتَسَبُوا إِلَيْهِ- أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ، وَمُوَالَاتُهُمْ لِمَذْهَبِ الْكُفَّارِ -الَّذِينَ فَارَقُوهُمْ- أَكْمَلَ الْمُوَالَاةِ، كَمَا فَعَلُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا أَتَاهُمْ بِدِينِ مُوسَى، وَاتَّبَعُوا كُتُبَ السِّحْرِ -وَهُوَ مِنْ دِينِ آلِ فِرْعَوْنَ-.

وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَثِيرٌ، هَجَرُوا السُّنَّةَ وَعَادَوْهَا، وَنَصَرُوا أَقْوَالَ الْفَلَاسِفَةِ وَأَحْكَامَهُمْ.

---

(١) المؤلف رحمه الله عاصر الدولة العثمانية، وهو يشير إلى ما رآه في زمنه، وهو في زمننا في كثير من البلاد الإسلامية أدهى وأمرُّ!

(٢) في نسخة «الخطيب» التصوف: وهو تصحيف.

٢٤- كفرهم بما مع غيرهم من الحق

(...الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ): إِنَّهُمْ لَمَّا افْتَرَقُوا، وَكُلُّ طَائِفَةٍ لَا تَقْبَلُ مِنَ الْحَقِّ إِلَّا مَا قَالَتْهُ طَائِفَتُهُمْ، وَكَفَرُوا بِمَا مَعَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْحَقِّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[البقرة:١١٣].

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَيْهِ الْيَوْمَ[1] كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، لَا يَعْتَقِدُ الْحَقَّ إِلَّا مَعَهُ، لَاسِيَّمَا أَرْبَابَ الْمَذَاهِبِ؛ يَرَى كُلُّ أَهْلِ مَذْهَبٍ أَنَّ الدِّينَ مَعَهُ، لَا يَعْدُوْهُ إِلَى غَيْرِهِ، و ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون:٥٣، الروم:٣٢].

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا بِلَيْلَى   وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

وَالْحَزْم أَنْ يُنْظَرَ إِلَى الدَّلِيلِ؛ فَمَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ فَهُوَ الْحَقُّ، الْحَرِيُّ أَنْ يُتَلَقَّى بِالْقَبُولِ، وَمَا لَيْسَ عَلَيْهِ بُرْهَانٌ وَلَا حُجَّةٌ يُنْبَذُ وَرَاءَ الظُّهُورِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُرَدُّ إِلَّا مَنِ اصْطَفَاهُ اللهُ لِرِسَالَتِهِ

---

(١) في نسخة «الخطيب» القوم...

٢٥- ادعاء كل طائفة حصر الحق فيها

(...الخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ): أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ ﷺ فِي حَدِيثِ الْفِرَقِ: « **وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةٍ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[١] ادَّعَى كُلُّ فِرْقَةٍ أَنَّهَا هِيَ النَّاجِيَةُ.

كَمَا حَكَى اللهُ تَعَالَى[٢] عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]. مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ الْمُرَادَ مِنَ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، فَقَالَ: « **وَهُمْ: مَا كُنْتُ أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[٣] أَوْ كَمَا قَالَ . وَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

---

(١) صحيح لغيره. أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٤٠) وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وسنده حسن ، وأخرجه أحمد (٤/ ١٠٢) وأبو داود (٤٥٩٧) وغيرهما عن معاوية رضي الله عنه وسنده حسن، فالحديث بمجموع الطريقين صحيح لغيره، كما قد قال شيخنا مقبل رحمه الله ذلك في "رياض الجنة" (ص٢١) وانظر: "الصحيحة" (٢٠٣و٢٠٤).

(٢) لو قال: (كما ذكر الله تعالى...) كان ذلك أسلم من النقد، انظر: "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٥٤٣- ٥٥٢ و-و ٥٥٣). و"معجم المناهي اللفظية" للشيخ بكر بن أبو زيد رحمه الله (ص٥٨٧).

(٣) هذه الزيادة ضعيفة في أقل أحوالها. أخرجها الترمذي (٢٦٤١) والمروزي في "السنة" (٦٠) والحاكم (١/ ١٢٨) وغيرهم كثير، من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم عن عبدالله بن يزيد عن عبدالله بن عمرو مرفوعًا بذكر حديث الافتراق السابق، وفي آخره: « **كلهم في النار إلا واحدة**» قالوا: ومن هي يا رسول الله؟! قال: « **ما أنا عليه وأصحابي**» ، وهذه الزيادة تفرد بها عبدالرحمن الإفريقي، وهو ضعيف الحديث، وجاء بنحوها عن أنس عند الطبراني في "الصغير" (٧٢٤) وقال: لم يروه عن يحيى يعني الأنصاري راويه عن أنس إلا عبدالله بن سفيان. اهـ قلت: وعبدالله بن سفيان ذكره العقيلي في "الضعفاء" (٢/ ٢٦٢) وذكر له هذا الحديث وقال: لا يتابع عليه وذكر هذا الذهبي في "الميزان" وذكر له هذا الحديث ثم قال: إنما يعرف هذا بابن أنعم الإفريقي عن عبدالله بن يزيد عن عبدالله بن عمرو. اهـ فهذه الزيادة ضعيفة. وأما الشيخ الألباني فقد حسنها في صحيح الترمذي وغيره قلت: من حيث السند فهي ضعيفة كما سبق،=

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:١١١-١١٢].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ بُرْهَانٌ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَى، بَلِ الدَّلِيلُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَأَبُو الْعَبَّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ[1] تَكَلَّمَ عَلَى حَدِيثِ الْفِرَقِ فِي كِتَابِهِ «مِنْهَاجُ السُّنَّةِ»[2] بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ؛ حَيْثُ اسْتَدَلَّ بِهِ الرَّافِضِيُّ عَلَى أَحَقِّيَّةِ مَذْهَبِهِ وَبُطْلَانِ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ، رَاجِعْهُ إِنْ أَرَدْتَهُ[3].

٢٦- إنكار ما أقروا أنه من دينهم

(... السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ): أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا مَا أَقَرُّوا أَنَّهُ مِنْ دِينِهِمْ؛ كَمَا فَعَلُوا فِي حَجِّ الْبَيْتِ.

فَتَعَبَّدُوا بِإِنْكَارِهِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُ، مَعَ ذَلِكَ الْإِقْرَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[البقرة:١٢٥]. ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى

= لكن معناها صحيح تدل عليه أدلة أخر في الكتاب والسنة.

(١) هو الإمام شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، المتوفى سنة (٧٢٨) هـ. انظر: ترجمته موسعة في عدة مصادر، في «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون» محمد العزيز شمس وعلي العمران.

(٢) هو: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية»، صنفه ردًّا على كتاب: «منهاج الكرامة» لأبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن مطهر الحلي، المتوفى سنة (٧٢٦هـ). انظر مقدمة: «منهاج السنة» (١/ ٨٨ وما بعدها).

(٣) انظر: «منهاج السنة» (٣/ ٤٤٣) وما بعدها، وانظر أيضًا رسالة الصنعاني المسماة: «حديث افتراق الأمة إلى نيّفٍ وسبعين فرقة» بتحقيق سعد السعدان.

﴿الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢].

يُقَالُ إِنَّ سَبَبَ نُزُولِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾... إلخ: مَا رُوِيَ أَنَّ عَبْدَاللهِ ابْنَ سَلَامٍ دَعَا ابْنَيْ(١) أَخِيهِ: سَلَمَةَ، وَمُهَاجِرًا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ نَبِيًّا اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَى وَرَشَدَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ. فَأَسْلَمَ سَلَمَةُ وَأَبُو مُهَاجِرٍ، فَنَزَلَتْ(٢). انْتَهَى.

٢٧- المجاهرة بكشف العورات

(...السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ): الْمُجَاهِرَةُ بِكَشْفِ الْعَوْرَاتِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٨-٢٩].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ(٣): الْفَاحِشَةُ هُنَا: الْفِعْلَةُ الْقَبِيحَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي الْقُبْحِ،

---

(١) سقط من مطبوعة دار السلام، والصواب إثباتها، كما المصادر الآتية.

(٢) معضل لا يثبت. قال الحافظ في «العجاب» (١/ ٣٧٨) رقم (٥٦): ذكره الثعلبي وتبعه الزمخشري يعني في «الكشاف» (١/ ٣١٢)، ثم قال الحافظ: وقد وجدته في «تفسير مقاتل بن سليمان». اهـ وذكره السيوطي في «اللباب» (صـ ٢٩) فقال: (قال ابن عيينة: رُوِيَ... أنَّ فذكره). ونقل المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ١٨٣) عن السيوطي أنه قال: لم أقف عليه في شيء من كتب الحديث ولا التفاسير المسندة الآتي.

(٣) انظر إلى: «روح المعاني» (١٥٧/ ٥).

وَالتَّاءُ إِمَّا لِأَنَّهَا مجراة عَلَى الْمَوْصُوفِ الْمُؤَنَّثِ أَيْ فِعْلَةٌ فَاحِشَةٌ، وَإِمَّا لِلنَّقْلِ مِنَ الْوَصْفِيَّةِ إِلَى الاِسْمِيَّةِ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا: عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ وَكَشْفُ الْعَوْرَةِ فِي الطَّوَافِ(١) وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَعَنِ الْفَرَّاءِ تَخْصِيصُهَا بِكَشْفِ الْعَوْرَةِ. وَفِي الْآيَةِ حَذْفٌ، أَيْ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فَنُهُوا عَنْهَا. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف:٢٨] مُحْتَجِّينَ بِأَمْرَيْنِ: بِتَقْلِيدِ الْآبَاءِ، وَالِافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ(٢).

وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ الْحُمْسِ(٣) أَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ إِلَى عَرَفَاتٍ؛ إِنَّمَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ(٤). وَكَانُوا لَا يَسْلَأُوْنَ، وَلَا يَأقطونَ، ولا يَرْتَبطون عَنْزًا ولا بَقَرَةً، ولا يَغْزِلونَ صوفًا ولا وَبَرًا، ولا يَدْخُلونَ بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ والمَدرِ، وَإِنَّمَا يَكْتَنُّونَ بِالقِبَابِ الْحُمْرِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، ثُمَّ فَرَضُوا عَلَى الْعَرَبِ قَاطِبَةً؛ أَنْ يَطْرَحُوا أَزْوَادَ الْحِلِّ إِذَا دَخَلُوا الْحَرَمَ، وَأَنْ يَتْرُكُوا ثِيَابَ الْحِلِّ وَيَسْتَبْدِلُوهَا بِثِيَابِ الْحَرَمِ، إِمَّا شِرَاءً، وَإِمَّا عَارِيَةً، وَإِمَّا هِبَةً، فَإِنْ وَجَدُوا ذَلِكَ فِيهَا، وَإِلَّا طَافُوا بِالْبَيْتِ عَرَايَا.

---

(١) وبهذا قال جماعة من السلف، كما في "تفسير الطبري" (١٠/١٣٧-١٣٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦١)، و"الدر المنثور" (٦/ ٣٥٦ـ٣٥٧).

(٢) انظر: "روح المعاني" (٥/ ١٥٧).

(٣) الحمس: هم قريش، وما ولدت كما سيأتي في الحديث.

(٤) أخرج البخاري (١٦٦٥) ومسلم (١٢١٩) عن هشام بن عروة، قال عروة: كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، وكانت الحمس يحتسبون على الناس يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها، فمن لم تعطه الحمس طاف بالبيت عريانًا، وكان يفيض جماعة الناس من عرفات، وتفيض الحمس من جمع ...الحديث

وفرضوا عَلَى نِسَاءِ[(١)] الْعَرَبِ مِثْلَ ذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَطُوفُ فِي دُرْجٍ[(٢)] مُفَرَّجُ الْقَوَائِمِ وَالْمَآخِيرِ. قالت امرأة[(٣)] وهي تطوف بالبيت:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ
أَخْثَمَ مِثْلُ الْقَعْبِ بَادٍ ظِلُّهُ ... كَأَنَّ حُمَّى خَيْبَرَ تَمُلُّهُ[(٤)]

وكلفوا الْعَرَبَ أَنْ يُفِيضُوا مِنْ مُزْدَلِفَةَ، وَقَدْ كَانُوا يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَةَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا وَتَشَرَّعُوهَا، مِمَّا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ. وَمَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَرِيعَةِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِجَاهِلِيَّتِهِمْ.

وَغَالِبُ مَنْ يَنْتَمِيْ إلى الإِسْلَامِ اليَومَ ابْتَدَعُوا فِي الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، فَمِنْهُمْ مَنِ اتَّخَذَ ضَرْبَ المَعَازِفِ، وَآلَاتِ اللَّهْوِ، عِبَادَةً يَتَعَبَّدُوْنَ بِهَا فِي بُيُوْتِ اللهِ وَمَسَاجِدِهِ، وَمِنْهُمْ مَنِ اتَّخَذَ الطَّوَافَ عَلَى القُبورِ وَالقَصْدَ إِلَيْهَا وَالنُّذورَ أَخْلَصَ عِبادَتِهِ وَأَفْضَلَ قُرُباتِهِ، ومِنْهُمْ مَنِ ابْتَدَعَ الرَّهْبانِيَّةَ والحِيَلَ الشَّيْطانِيَّةَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ سَلَكَ سَبِيْلَ الزُّهَّادِ وَطَرِيْقَ العُبَّادِ، ومَقْصَدُهُ الأَعْلَى شَهَواتِهِ الحَيَوانِيَّةُ، والفَوزُ

---

(١) في «نسخة الخطيب»: لسان.

(٢) أي: شيء من الثياب وقال في: «اللسان» الدرج بالظم سفيط صغير تدخر فيه المرأة طيبها وأداتها، وهو الحفش أيضًا.

(٣) قال السهيلي في «الروض الأنف» (٢/ ٢٩٠ـ٢٩١): يذكر أن هذه المرأة هي: ضباعة بنت عامر ابن صعصعة، ثم من بني سلمة بن قشير.

(٤) أخرج مسلم (٣٠٢٨) عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول: من يعيرني تطوافًا؛ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

بِهَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيةِ[١] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ، وَلَا يُعْلَمُ مَاذَا يقولُ:

إلى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخُصُوْمُ[٢]

٢٨- التعبد بتحريم الحلال

(... الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ): التَّعَبُّدُ بِتَحْرِيمِ الحَلالِ.

فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى ذلِكَ عَلَيْهِمْ بِقولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ * قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣١-٣٢].

وَمَعْنَى الْآيَاتِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]، أَيْ: ثِيابَكُمْ لِمُوَارَاةِ عَوْراتِكُمْ عِندَ طَوَافٍ أَوْ صَلَاةٍ. وَسَبَبُ النُّزُولِ: أَنَّهُ كَانَ أُنَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ يَطُوْفُوْنَ بِالبَيْتِ عُرَاةً، حَتّىَ إِنْ كَانَتِ المَرْأَةُ لَتَطُوفُ بِالبَيْتِ وهِيَ عُرْيَانَة، فَتُعَلِّقُ عَلَى سُفْلِهَا سُيُوْرًا مِثْلَ هَذِهِ السُّيُورِ التِي تَكُوْنُ عَلَى وَجْهِ الحُمْرِ مِنَ الذُّبَابِ، وَهِيَ تَقُولُ:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ[٣]

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ[٤]: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَأْكُلُونَ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا قُوتًا، وَلَا يَأْكُلُونَ دَسَمًا فِي أَيَّامِ حَجِّهِمْ،

---

(١) وهذا ينطبق تمامًا على الشيعة والصوفية في زماننا هذا.

(٢) ينسب إلى حسان بن ثابت ﷺ، وهو في "ديوان أبي العتاهية" (ص٣٥٣) بيت رقم (٢).

(٣) في مسلم (٣٠٢٨) عن ابن عباس، كما تقدم في التعليق على المسألة السابقة (ص٥٢).

(٤) هو محمد بن السائب الكلبي، متروك الحديث انظر: "التهذيب" و"الميزان".

يُعَظِّمُونَ بِذَلِكَ حَجَّهُمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْآيَةَ[1].

وَفِيْهِ يَظْهَرُ وَجْهُ ذِكْرِ الأَكْلِ والشُّرْبِ هُنَا: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، كَمَا هُوَ المُنَاسِبُ لِسَبَبِ النُّزُولِ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بَلْ يُبْغِضُهُمْ، وَلاَ يَرْضَى أَفْعالَهُمْ. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مِنَ الثِّيَابِ وَكُلِّ مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ، وَخَلْقُهُ لِنَفْعِهِمْ، مِنَ الثِّيَابِ: كَالْقُطْنِ، والكَتَّانِ، والحَيوانِ، كَالْحَرِيرِ والصُّوفِ. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أَيِ: الْمُسْتَلَذَّاتِ -وقيلَ المُحَلَّلات- ومِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ كَلَحْمِ الشَّاةِ وَشَحْمِهَا وَلبَنِها ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: هِيَ لَهُمْ بِالأَصَالَةِ لِمَزِيدِ كَرَامَتِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَالكَفَرَةُ وَإِنْ شَارَكُوْهُمْ فِيْهَا فَبِالتَّبَعِ، فَلاَ إِشْكَالَ فِي الاخْتِصَاصِ ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَيْ: لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُم. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: مِثْلَ تَفْصِيلِنا هَذَا الْحُكْمَ، نُفَصِّلُ سَائِرَ الأَحْكَامِ لِمَنْ يَعْلَمُ مَا فِي تَضَامِيْنِهَا مِنَ الْمَعَانِيْ الرَّائِقَةِ. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أَيْ: مَا تَزايَدَ قُبْحُهُ مِنَ المَعاصِيْ، وَمِنهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْفُرُوْجِ، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بَدَلٌ مِنَ الفَواحِشِ، أَيْ جَهْرَها وَسِرَّهَا. وعَنِ البَعْضِ[2]: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الزِّنَا عَلَانِيَةً. ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزِّنَا سِرًّا، وَكَانُوا يَكْرَهُوْنَ الأَوَّلَ، ويَفْعَلُونَ الثَّانيَ، فَنُهُوْا عَنْ ذَلِكَ مُطْلَقًا. وَعَنْ

---

(١) علقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص١٩١) عن الكلبي باللفظ الذي ذكره المؤلف، إلا آخره، فلفظه: «...نحن أحق بذلك» فأنزل الله تعالى (وكلوا) أي: اللحم والدسم (واشربوا). والسبب معضل؛ معلق لا يثبت، والكلبي نفسه مطرح الحديث.

(٢) صح عن قتادة عند الطبري (٩/ ٦٦٠)، ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي سنده أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف، وعن الضحاك وفيه أبو معاذ مستور، وانظر: "تفسير ابن أبي حاتم" (٥/ ١٤١٦و١٤٦٩)، و"الدر المنثور" عند الآية (١٥١) من سورة الأنعام، والآية (٣٣) من سورة الأعراف.

مُجَاهِدٍ[١]: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ التَّعَرِّي فِي الطَّوَافِ. ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزِّنَا[٢].

والبَعْضُ يَقولُ: الأَوَّلُ طَوَافُ الرِّجَالِ بِالنَّهَارِ، وَالثَّانِي طَوَافُ النِّسَاءِ بِاللَّيْلِ عَارِيَاتٍ. ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أَيْ: مَا يُوجِبُ الْإِثْمَ، وَأَصْلُهُ الذَّمُّ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى مَا يُوجِبُهُ مِنْ مُطْلَقِ الذَّنْبِ، وَذُكِرَ لِلتَّعْمِيمِ بَعْدَ التَّخْصِيصِ، بِناءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى الفَواحِشِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الإِثْمَ هُوَ الخَمْرُ[٣]، وَعَلَيْهِ أَهْلُ اللُّغَةِ[٤]، وَأَنْشَدُوا لَهُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

نَهَانَا رَسُولُ اللهِ أَنْ نَقْرَبَ الزِّنَا ... وَأَنْ نَشْرَبَ الإِثْمَ الَّذِي يُوجِبُ الوِزْرَا

وَقَوْلَ الآخَرِ[٥]:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإِثْمُ يُذْهِبُ بِالعُقُولِ[٦]

﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وَهُوَ الظُّلْمُ وَالاسْتِطَالَة عَلَى النَّاسِ، وَأُفْرِدَ بِالذِّكْرِ؛

---

(١) هو مجاهد بن جبر، أحد الأئمة الثقات من التابعين. انظر ترجمته في «التهذيب».

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٦٣) وعلقه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٧٠) في سنده جهالة، وبعضهم لم أقف على ترجمته لذلك صدره الطبري بقوله: رُوِيَ عن مجاهد.

(٣) قال ابن عادل في «اللباب» (٩/ ٩٦): قيل: هو الخمر، قاله المفضل، وانظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ١٢٩) و«اللباب» (٩/ ٩٧).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (٤/ ٢٩٤)، و«اللباب» (٦/ ٩٦)، و«روح المعاني» (٨/ ١١٢).

(٥) أنشده الأصمعي انظر: «اللباب» (٩/ ٩٦-٩٧).

(٦) قال ابن عادل في «اللباب» (٩/ ٩٧): بعد ذكره لقول من قال: إن الإثم هي الخمر: والذي قال الحذاق: إن الإثم ليس من أسماء الخمر، قال الأنباري: الإثم لا يكون اسمًا للخمر؛ لأن العرب لم تسمّ الخمر إثمًا، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وقال ابن عباس والحسن: لا ينافي ذلك؛ لأن الخمر سبب الإثم، بل هي معظمه؛ فإنها مؤججة للفتن، وكيف يكون ذلك وكانت الخمر حين نزول هذه السورة حلالًا؛ لأن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر إنما كان في المدينة بعد =

بِنَاءً عَلَى التَّعْمِيمِ فِيمَا قَبْلَهُ، أَوْ دُخُولِهِ فِي الْفَوَاحِشِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الزَّجْرِ عَنْهُ. ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِالإِلْحَادِ فِي صِفَاتِهِ وَالافْتِرَاءِ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا﴾[الأعراف:٢٨]. وَلَا يَخْفَى أَنَّ مُتَصَوِّفَةَ زَمَانِنَا عَلَى هَذِهِ الْخَصْلَةِ الْجَاهِلِيَّةِ: فَقَدْ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ زِينَةَ اللهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؛ لِيَعْتَقِدَ النَّاسُ صَلَاحَهُمْ، وَابْتَدَعُوا الْخَلَوَاتِ وَالرِّيَاضَاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِهِمْ، فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَس وَسَائِرِ شُؤُنِهِمْ، وَمَا دَرَوْا أَنَّهُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

٢٩- الإلحاد في أسماء الله سبحانه وصفاته

(... التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ): الإِلْحَادُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠].

تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف:١٨٠] تَنْبِيهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى كَيْفِيَّةِ ذِكْرِهِ تَعَالَى، وَكَيْفِيَّةِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الْمُخِلِّيْنِ بذلِكَ الْغَافِلِينَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ، وَعَمَّا يَلِيقُ بِشَأْنِهِ، إِثْرَ بَيَانِ غَفْلَتِهِمُ التَّامَّةِ، وَضَلالَتِهِمُ الطَّامَّةِ. ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠] إِمَّا مِنَ الدَّعْوَةِ بِمَعْنَى التَّسمِيَةِ، كَقَوْلِهِمْ: دَعَوْتُهُ زَيْدًا، أَوْ يَزِيدُ. أَيْ: سَمَّيْتُهُ، أَوِ الدُّعَاءِ بِمَعْنَى النِّدَاءِ، كَقَوْلِهِمْ: دَعَوْتُ زَيْدًا، أَيْ: نَادَيْتُهُ.

= أحد، وقد شربها جماعة من الصحابة يوم أحد، فماتوا شهداء وهي في أجوافهم؛ وأما ما أنشده الأصمعي من قوله: لا شربت الإثم... نصوا على أنه مصنوع، وأما غيره فالله أعلم. انتهى.

قالت: والصواب في تفسير الإثم هنا أنه: المعاصي بجميع أشكالها والخمر أحدها. وهذا قول جمهور المفسرين، والله أعلم.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[الأعراف:١٨٠] أَيْ: يَمِيْلُونَ وَيَنْحَرِفُوْنَ فِيْهَا عَنِ الحَقِّ إلى البَاطِلِ، يُقَالُ: أَلْحَدَ، إِذَا مَالَ عَنِ القَصْدِ وَالاستِقامَةِ، وَمِنه لَحْدُ القَبْرِ لِكَونِهِ فِي جَانِبِهِ بِخِلافِ الضَّرِيْحِ؛ فَإِنَّهُ فِي وَسَطِهِ. وَالإِلْحَادُ فِي أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُسَمَّى بِلَا تَوْقِيفٍ فِيهِ، أَوْ بِمَا يُوهِمُ مَعْنًى فَاسِدًا[1]، كَمَا فِي قَوْلِ أَهْلِ الْبَدْوِ: يَا أَبَا الْمَكَارِمِ، يَا أَبْيَضَ الْوَجْهِ، يَا سَخِيُّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَالْمُرَادُ بِتَرْكِ الْمَأْمُورِ بِهِ الاجْتِنَابُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَسْمَائِهِ[2] مَا أَطْلَقُوهُ عَلَيْهِ تَعَالَى وَسَمَّوهُ بِهِ عَلَى زَعْمِهِمْ، لَا أَسْمَاؤُهُ تَعَالَى حَقِيْقَةً، وَعَلَى ذَلِكَ يُحْمَلُ تَرْكُ الإِضْمَارِ، بِأَنْ يُقَالَ: يُلْحِدُونَ بِهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد:٣٠]. عَنْ قَتَادَةَ[3] وَابْنِ جُرَيْجٍ[4] وَمُقَاتِلٍ[5] أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ لَمَّا رَأَوْا كِتَابَ الصُّلْحِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ[6] وَقَدْ كَتَبَ فِيهِ عَلِيٌّ

---

(١) انظر: "بدائع الفوائد" لابن القيم (١/ ٢٩٧-٢٩٨)، طبع عالم الفوائد.

(٢) في "الخطيب": (أسمائه).

(٣) هو ابن دعامة السَّدُوْسِيّ أبو الخطاب، أحد ثقات التابعين الحفاظ الكبار، وأخرج الأثر عنه ابن جرير الطبري (١٣/ ٥٣٠)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٨\٤٥٢): إلى ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وسنده عند ابن جرير صحيح إلى قتادة، ولكنه بلاغ، حيث قال: ذُكِرَ لنا أن النبي زمن الحديبية... فذكره، ولم يذكر أن الآية نزلت بسبب ذلك.

(٤) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ثقة يدلس. وما جاء عنه في هذا، أخرجه ابن جرير وابن المنذر كما في "الدر المنثور" (٨/ ٤٥٣). قلت: ولكن الذي عند ابن جرير (١٣/ ٥٣١) أخرجه من طريق ابن جريج عن مجاهد ولم يذكر منه أنها نزلت الآية بسبب ذلك.

(٥) انظر: "روح المعاني" (٨/ ٢١٩) ولم أره في سواه، ثم رأيته في "التفسير المنسوب إلى مقاتل" (٢/ ١٧٦).

(٦) قصة صلح الحديبية أخرجها البخاري (٢٧٣١) من حديث المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ ومروان بن الحكم.

ﷺ (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا مُسَيْلِمَةَ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «يَا أَللهُ، يَا رَحْمَانُ» فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَنْهَانَا عَنْ عِبَادَةِ الْآلِهَةِ وَهُوَ يَدْعُو إِلَهَيْنِ، فَنَزَلَتْ[1].

وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ: اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ. فَنَزَلَتْ.

وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢١-٢٣]. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِخْبَارٌ أَنَّ أَهْلَ الجاهِلِيَّةِ كَانُوا يُلْحِدُونَ فِي صِفَاتِهِ، كَمَا كَانُوا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَى. أخرَجَ أَحْمَدُ، وَالْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، والتِّرمذيُّ، والنَّسائِيُّ، وجَماعةٌ[2]، عَنِ ابْنِ مسعود، قال: كُنْتُ مُسْتَنِدًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، فَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ -قُرَشِيٌّ وثَقَفِيَّانِ، أَوْ ثَقَفِيٌّ وقُرَشِيانِ- كَثِيرٌ لَحْمُ بُطُونِهِمْ؛ قَلِيلٌ عِفَّةُ قُلُوبِهِمْ، فَتَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ لَمْ أَسْمَعْهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ اللهَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا هَذَا؟ فَقَالَ الآخَرُ: إِذَا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا يَسْمَعُهُ، وَإِذَا لَمْ نَرْفَعْ لَمْ يَسْمَعْ، فَقَالَ الآخَرُ: إِنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا سَمِعَهُ كُلَّهُ. قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢] إلى قوله: ﴿مِّنَ

---

(١) انظر: «روح المعاني» (٨/ ٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥)، وأحمد (١/ ٣٨١-٤٠٨-٤٢٦-٤٤٢-٤٤٤)، والترمذي (٣٢٤٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٨)، وأبو يعلى (٥٢٢٦)، وابن حبان (٣٩٠)، من طرق عن ابن مسعود ﷺ.

ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣] فَهَذَا هُوَ الْإِلْحَادُ فِي الصِّفَاتِ. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُسْلِمِينَ[١] مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَوْقَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ، فَسَمَّوا اللهَ بِأَسْمَاءٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَيْسَ للهِ صِفَاتٌ قَامَتْ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: صِفَاتُهُ لَيْسَتْ عَيْنَ ذاتِهِ وَلَا غَيْرَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّ صِفَاتِهِ غَيْرُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّ اللهَ لَمْ يَتكَلَّمْ بالكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا. وَأَثْبَتُوا لَهُ الْكَلَامَ النَّفْسِيَّ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْ رُسُلِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْإِلْحَادِ الَّذِي حَشَوْا بِهِ كُتُبَهُمْ[٢] مَلَئُوهَا مِنَ الْهَذَيَانِ، وَظَنُّوا أَنَّ الْآيَةَ مُخْتَصَّةٌ بِأَهْلِ الجاهِلِيَّةِ، وَمَا دَرَوْا [أَنَّهُمُ الفَرْدُ الْكَامِلُ لِعُمُومِهَا[٣]]. وَمَنْ بَصَّرَهُ (اللهُ)[٤] وَنَوَّرَ قَلْبَهُ، أَعْرَضَ عَنْ أَخْذِ عَقَائِدِهِ مِنْ كُتُبِ هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ، وتَلَقَّى مَعْرِفَةَ إِلهِهِ مِنْ كُتُبِ السَّلَفِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى نُصُوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

٣٠- نسبة النقائص إلى الله سبحانه

(... الثَّلَاثُونَ): نِسْبَةُ النَّقَائِصِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ كَالْوَلَدِ وَالْحَاجَةِ.

فَإِنَّ النَّصَارَى قَالُوا: الْمَسِيحُ ابنُ اللهِ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَقَوْمٌ مِنَ الفَلاسِفَةِ قَالُوا: بِتَولِيدِ العُقولِ، وَقَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا: الْعُزَيْرُ ابْنُ اللهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، وَنَفَاهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤]. وَبِقَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ

---

[١] لو قال: (ما عليه أكثر المتكلمين ممن نسب إلى الإسلام...) لكان صوابًا؛ وذلك لأن بعض المتكلمين قد كفروا، كما في غلاة المتكلمين من الجهمية والراوافض ونحوهم. والله أعلم.

[٢] ليس في "الخطيب".

[٣] كذا في "الخطيب".

[٤] ليس في "الخطيب".

لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات:١٥١-١٥٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠٠-١٠١].

وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي[١] تُذْكَرُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ بَعْضِ الْأُمَمِ، كَمَا أَنَّ مَا نَفَاهُ مَنِ اتِّخَاذِ الوَلَدِ يَعُمُّ أَيْضًا جَمِيعَ أَنْوَاعَ الاتِّخَاذَاتِ، لَا اصْطِفَاءَه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

قَالَ السُّدِّيُّ : قَالُوا: إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى إِسْرَائِيلَ إِنَّ وَلَدَكَ بِكْرِي مِنَ الوَلَدِ فَأُدْخِلُهُمُ النَّارَ[٢]، فَيَكُونُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا حَتَّى تُطَهِّرَهُمْ وَتَأْكُلَ خَطَايَاهُمْ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: أَخْرِجُوا كُلَّ مَخْتُونٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ[٣]. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١].

وَقَالَ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١].

---

(١) في «الخطيب»: متى.

(٢) في «تفسير الطبري» (٨/ ٢٧٠): (أن ولدًا من ولدك أدخلهم النار)، وفي نسخ منه (ولدك من الولد فأدخلهم النار).

(٣) سنده إلى السدي لا بأس به، لكنه من الإسرائيليات، والأثر أخرجه ابن جرير (٨/ ٢٦٩-٢٧٠) وعزاه ابن كثير في «تفسيره» عند الآية (١٨) من المائدة إلى ابن أبي حاتم، وفي آخره عند الطبري: أن اخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل، فأخرجهم فذلك قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران:٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:١-٢].

وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٩].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ * وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ﴾... إلى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[النحل:٥١-٥٧]. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا * أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٣٩-٤٢].

وَقَالَ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾[الصافات:١٤٩-١٦٣].

وَقَالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ -إِلَى قَوْلِهِ- إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴾ [النجم:١٩-٢٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف:١٥]. قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: ﴿ جُزْءًا ﴾ أَيْ: نَصِيبًا وَبَعْضًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلُوا للهِ نَصِيبًا مِنَ الْوَلَدِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ[(١)] وَمُقَاتِلٍ: عَدْلاً. وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ؛ فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، والوَلَدُ يُشْبِهُ أَبَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ [الزخرف:١٧]. أَيِ: الْبَنَاتِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨]. فَقَدْ جَعَلُوهَا لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً، ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف:١٥]، فَإِنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الْوَالِدِ، قَالَ ﷺ: «إنما فاطمة بَضْعَةٌ مني»[(٢)] وَقَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٠]. قَالَ الْكَلْبِيُّ[(٣)]: نَزَلَتْ فِي الزَّنَادِقَةِ، قَالُوا: إِنَّ اللهَ وَإِبْلِيسَ شَرِيكَانِ[(٤)]: فَاللهُ خَالِقُ (النُّورِ)[(٥)] وَالنَّاسِ وَالدَّوَابِّ، وَإِبْلِيسُ خَالِقُ (الظُّلْمَةِ) وَالسِّبَاعِ وَالْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات:١٥٨] فَقِيلَ: هُوَ قَوْلُهُمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَسَمَّى الْمَلَائِكَةَ جِنًّا؛

---

(١) صحيح عن قتادة، أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٤)، وابن جرير (٢٠/ ٥٦١)، وعبدالرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٤)، و(٩٢٦)، ومسلم (٢٤٤٩) (٩٤)، عن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (صـ١٨٦) عن الكلبي بدون سند، ولو وقف على سنده، فإنه معضل في أقل أحواله، وناقله الكلبي وهو مطروح الحديث.

(٤) في «أسباب النزول» للواحدي: (أخوان).

(٥) ليست في «أسباب النزول».

لاخْتِفَائِهِمْ عَنِ الأَبْصَارِ ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ [١] وَقَتَادَةَ [٢]، وَقِيْلَ [٣]: قَالُوْا لِحَيٍّ مِنَ المَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمُ: الجِنُّ، وَمِنْهُمْ إِبْلِيْسُ: هُمْ بَنَاتُ اللهِ. وَقَالَ الكَلْبِيُّ : قَالُوْا لَعَنَهمُ اللهُ: بَلْ بُذوْرٌ يَخْرُجُ مِنْهَا المَلَائِكَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٠] قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ [٤]: هُمْ كُفَّارُ العَرَبِ، قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ وَالْأَصْنَامُ بَنَاتُ اللهِ، واليَهودُ قَالُوا: عُزَيْر ابنُ اللهِ، وَالَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ مِنَ العَرَبِ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، وَمَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنْ أَنَّه صَاهَرَ الجِنَّ، فوَلَدَتْ لَهُ [٥] الْمَلَائِكَةَ، فَقَدْ نَفَاهُ عَنْهُ بِامْتِنَاعِ الصَّاحِبَةِ، وَبِامْتِنَاعِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ جُزْءٌ ، فَإِنَّهُ صَمَدٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ﴾[الأنعام:١٠١] وَهذَا لِأَنَّ الولادةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلَيْنِ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ تَوَلُّدُ الْأَعْيَانِ - الَّتِي تُسَمَّى الْجَوَاهِرَ- وَتَوَلُّدُ الْأَعْرَاضِ وَالصِّفَاتِ، بَلْ وَلَا يَكُونُ تَوَلُّدُ الْأَعْيَانِ إِلَّا بِانْفِصَالِ جُزْءٍ مِنَ الْوَلَدِ، فَإِذَا امْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ، امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، وَقَدْ عَلِمُوا كُلُّهُم أَنْ لَا صَاحِبَةَ لَهُ: لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا مِنَ الْجِنِّ، وَلَا مِنَ الإِنْسِ، فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُم: إِنَّ لَهُ صَاحِبَةً. فَلِهَذَا احْتَجَّ بِذلِكَ عَلَيْهِمْ.

وَمَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِ كُفَّارِ الْعَرَبِ أَنَّهُ صَاهَرَ الْجِنَّ فَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ [٦].

---

(١) صحيح عنه. أخرجه الطبري (١٩/ ٦٤٥) والبيهقي في "الشعب" (١٤١)، وعزاه السيوطي في "الدر" (١٢/ ٤٨٤) إلى آدم بن أبي إياس، وعبد بن حُمَيْدٍ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) صحيح عن قتادة: أخرجه الطبري (١٩/ ٦٤٥).

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦١) عن قتادة بسند صحيح، وعن السدي بنحوه بسند لا بأس به.

(٥) سقط من "الخطيب".

(٦) يعني والله وأعلم: في وثبوته نظر عن كفار العرب، ولكن قد ثبت شيء من ذلك فقد أخرج =

وَذَلِكَ إِنْ كَانَ قَدْ قِيلَ فَهُوَ مِمَّا يُعْلَمُ انْتِفَاؤُهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، وَكَذَلِكَ مَا قَالَتْهُ النَّصَارَى مِنْ أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللهِ، وَمَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ: إِنَّ الْعُزَيْرَ ابنُ اللهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ نَفَاهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا وَهَذَا. وَتَمَامُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَقَامِ فِي كِتَابِ «الْجَوَابِ الصَّحِيحِ لِمَنْ بَدَّلَ دِيْنَ الْمَسِيحِ»[1] و«تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ» وَغَيْرِهِمَا مِنْ كُتُبِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ تَقِيِّ الدِّينِ، قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ.

٣١- تنزيههم المخلوق عما نسبوه للخالق

(الْمَسْأَلَة الْحَادِيَة وَالثَّلَاثُونَ): تَنْزِيهُ الْمَخْلُوقِ عَمَّا نَسَبُوهُ لِلْخَالِقِ.

مِثْلَ: تَنْزِيهِ أَحْبَارِهِمْ عَنِ الوَلَدِ وَالزَّوْجَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّاغِبِينَ فِي استحصالِ الْكَمَالَات، كَالرُّهْبَانِ وَأَضْرَابِهِمْ، يترفَّعونَ عَنْ أَنْ يَتَدَنَّسُوا بِدَنَاءَة التَّمتُّعِ بِالنِّسَاءِ؛ اقْتِدَاءً بِالْمَسِيحِ ﷺ ، فَانْظُرْ إِلَى سَخافةِ الْعُقُولِ، وَمَا قَادَهُمْ إِلَيْهِ ضَلَالُهُمْ؛ حَتَّى اعْتَرَضُوا عَلَى سَيِّدنا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي زَوَاجِهِ! وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الفاروقِيُّ[2] ، رَدًّا عَلَى بَعْض أَحْبَارِ النَّصَارَى بِقَوْلِهِ:

قُلْ لِلفرِسْنَلِ قُدْوَةِ الرُّهْبَانِ ... الجاثليق البَتْرِكِ الرَّبَّانِيِّ

= ابن الأعرابي في «معجمه» (٤٢٧)، بسند حسن عن الأعمش أنه قال: تزوج رجل من الجن إلينا فقلنا: أي شيء تشتهون من الطعام؟ فقال: الأرز. فأتيناهم بالأرز. فجعلت أرى اللقم ترتفع، ولا أرى أحدًا، قال: قلت: فيكم هذه الأهواء فينا؟ قال: نعم. قلت: الرافضة؟ قال: شر قوم. انظر كتابي «توضيح النبأ» (ص٣٨).

(١) لا سيما منه (٣/ ٨٢)، وما بعدها.

(٢) هو عبدالباقي بن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي، الموصلي الشاعر المؤرخ، له «الترياق الفاروقي» وهو ديوان شعر له، وهو مطبوع، توفي سنة (١٢٧٩هـ). انظر «الأعلام» للزركلي (٣/ ٢٧١-٢٧٢).

أَنْتَ الَّذِي زَعَمَ الزَّوَاجَ نَقِيصَةً ... مِمَّنْ حَمَاهُ اللهُ عَنْ نُقْصَانِ

ونَسِيتَ تَزْوِيجَ الإِلَهِ بِمَرْيَمٍ ... فِي زَعْمِ كُلِّ مُثَلِّثٍ نَصْرَانِي

وَمَنْ جَعَلَ مِنَ العَرَبِ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللهِ، كَانَ يَأْنَفُ مِنْهُنَّ، وسَنَّ وَأْدَهُنَّ وَقَتْلَهُنَّ، وَنَسَبُوا للهِ مَا يَكْرَهُونَ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ وَأَشْبَاهَهَا مَنْشَؤُهَا الْجَهْلُ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَعَدَمُ تَحْكِيمِ الْعَقْلِ، وَإِلَّا فَأَهْلُ الْبَصَائِرِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمْ هَذَا الخَلَلُ، واللهُ الموَفِّقُ.

٣٢- قولهم بالتعطيل

(... الثَّانِيَةُ والثلاثون): الْقَوْلُ بِالتَّعْطِيلِ، كَمَا كَانَ يَقُولُهُ آلُ فِرْعَونَ .

وَالتَّعْطِيلُ: إِنْكَارُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِ صَانِعٌ[1]، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]. وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَخْلُ الْعَالَمُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْجَهَالَاتِ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ، وَأَبْنَاءُ هَذَا الزَّمَانِ إِلَّا النَّادِرَ عَلَى هَذِهِ العَقِيدَةِ البَاطِلَةِ، وَلَوْ نَظَرُوا بِعَيْنِ الإِنْصَافِ وَالتَّدَبُّرِ، لَعَلِموا أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ فِي العَالَمِ يَدُلُّ عَلَى خَالِقِهِ وَبَارِئِهِ:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

---

(١) هذا أحد معاني التعطيل؛ إذ معانيه ثلاثة، قال ابن القيم في "شفاء العليل": والتعطيل أنواع:

١- تعطيل المصنوع عن الصانع، وهو تعطيل الدهرية والزنادقة.

٢- وتعطيل الصانع عن صفات كماله ونعوت جلاله، وهو تعطيل الجهمية نفاة الصفات.

٣- وتعطيله عن أفعاله، وهو أيضًا تعطيل الجهمية. اهـ

وانظر: "الجواب الكافي" (ص١٣٤-١٣٥)، و"التسبيح في الكتاب والسنة" (٢/ ٣٨٨-٣٩٢).

فائدة وتنبيه: اعلم وفقك الله: أن (الصانع) ليس من أسماء الله، لعدم ثبوت دليل في ذلك وأسماء الله تعالى توقيفية. انظر: "معجم المناهي" للعلامة بكر أبو زيد رحمه الله.

وَمِنْ أَيْنَ لِلْطَّبِيْعَةِ إِيْجَادُ مِثْلِ هَذِهِ الدَّقَائِقِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي الآفَاقِ وَالأَنْفُسِ، وَهِيَ عَدِيْمَةُ الشُّعُورِ: لَا عِلْمَ لَهَا وَلَا فَهْمَ؟! تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا.

٣٣- الشركة في الملك

(... الثَّالِثَةُ والثلاثون): الشَّرِكَةُ فِي الْمُلْكِ، كَمَا تَقُولُهُ الْمَجُوسُ.

وَالْمَجُوسُ[١] أُمَّةٌ تُعَظِّمُ الأَنْوَارَ وَالنِّيرَانَ وَالْمَاءَ وَالأَرْضَ، وَيُقِرُّونَ بِنُبُوَّةِ زَرَادِشْت، وَلَهُمْ شَرائِعُ يَصِيرُونَ إِلَيْهَا. وَهُمْ فِرَقٌ شَتَّى:

مِنْهُمُ: الْمَزْدَكِيَّةُ أَصْحَابُ مَزْدَك الْمُوْبَذ[٢]، وَالْمُوْبَذُ عِنْدَهُمْ: العَالِمُ القُدْوَةُ، وَهَؤُلَاءِ يَرَوْنَ الاشْتِرَاكَ فِي النِّسَاءِ وَالْمَكَاسِبِ، كَمَا يُشْتَرَكُ فِي الْهَوَاءِ وَالطُّرُقِ وَغَيْرِهَا.

وَمِنْهُمْ: الْخُرَّمِيَّةُ أَصْحَابُ بابِكَ الْخُرَّمِيِّ[٣]، وَهُمْ شُرُّ طَوَائِفِهِمْ لَا يُقِرُّوْنَ بِصَانِعٍ

---

(١) المجوسية هي: إحدى النحل القديمة، تنسب إلى رجل صغير الأذنين يقال له: مجوس وهي من الديانات الوثنية، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى حتى في توحيد الربوبية، فإنهم يقولون: إن للعالم خالقين اثنين: النور وهو: خالق الخير، والظلمة وهي: خالق الشر، ويخصون النار بالعبادة من دون الله سبحانه، وهم أمة وثنية: لا كتاب لهم على القول الصحيح من أقوال أهل العلم. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢٣٠)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص٨٦) و«التبصر في الدين» (ص١٥٠) و«البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» (ص٩٠) و«فتح رب البرية بشرح مسائل الجاهلية» عند المسألة (٤٢).

(٢) هو مزدك الموبذاد أحد الإباحيين، ظهر زمن قباذ بن يزدجر بن بهرام جمر ، أحد ملوك الفرس وادعى النبوة ودعي إلى اشتراك الناس في النساء والأموال، واستجاب لدعوته قباذ، وانظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ١٧٦) و«الفهرست» لابن النديم (٤٠٦) و«الكامل» لابن الأثير (١/ ٢٤١-٢٤٣) و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ١٧٦).

(٣) خرج هذا الرجل بين أذربيجان، وأران في شمال بلاد الفرس، في كُوْرَةٍ تدعى البذير التي بها =

وَلَا مَعَادٍ وَلَا نُبُوَّةٍ وَلَا حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ، وَعَلَى مَذْهَبِهِمْ طَوَائِفُ القَرَامِطَةِ والْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَالنُّصَيْرِيَّةِ وَالكَيْسَانِيَّةِ وَالزرَارِيَّةِ وَالحَكَمِيَّةِ وَسَائِرِ العُبَيْدِيَّةِ الَّذِيْنَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمُ الفَاطِمِيَّةُ[1]، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَجْمَعُهُمْ هَذَا المَذْهَبُ، وَيَتَفَاوَتُونَ فِي التَّفْصِيلِ، فَالمَجُوْسُ شُيوخُ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ، وَأَئِمَّتُهُمْ وقُدوتُهم، وَإِنْ كَانَ الْمَجُوسُ قَدْ يَتَقَيَّدونَ بِأَصْلِ دِينِهِمْ وشَرائِعِهم، وَهَؤُلَاءِ لَا يَتَقَيَّدونَ بِدِيْنٍ مِنْ دِيَانَاتِ العَالَمِ وَلَا بِشَرِيعَةٍ مِنَ الشَّرَائِعِ.

٣٤- إنكار النبوات

(... الرَّابِعَةُ والثلاثون): إِنْكَارُ النُّبُوَّاتِ.

وَكَانُوا يَقُولُونَ مَا حَكَى[2] اللهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۞ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩٠-٩١].

= الرس العظيم، وامتدت فتنته زمنًا طويلًا، في عهد المأمون والمعتصم، كان خروجه سنة (٢٢١) في عهد المأمون، وكانت نهايته في عهد المعتصم سنة (٢٣١). انظر تفصيل ذلك في: "تاريخ الطبري"، و"المنتظم" لابن الجوزي، و"تاريخ الإسلام" للذهبي أحداث سنة (٢٢٠) وما بعدها كتاب: "الفرق بين الفرق" (ص٢٦٦-٢٦٨) و"محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية" (ص١٩٦).

(١) انظر لبيان هذه الفرق كتاب: "الملل والنحل" للشهرستاني، و"الفرق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي.

(٢) لو قال: (كانوا يقولون فيما ذكر الله عنهم بقوله...) لكان صوابًا. انظر ما سبق تعليقه في المسألة (٢٥).

تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾، شُرُوعٌ فِي تَقْرِيرِ أَمْرِ النُّبُوَّةِ، بَعْدَمَا حَكَى اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنَّهُ ذَكَرَ دَلِيلَ التوحِيْدِ وَإِبْطَالِ الشِّرْكِ، وَقَرَّرَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ بِأَفْصَحِ الدَّلِيْلِ بِأَوْضَحِ وَجهٍ. ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الأنعام:٩١] أَيْ: حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: مَا عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ؛ ﴿إِذْ قَالُوا﴾ مُنْكِرِينَ لِبِعْثَةِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، كَافِرِينَ بِنِعَمِهِ الْجَلِيلَةِ فِيهِمَا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٩١] أَيْ: شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ. وَاخْتُلِفَ فِي قَائِلِي ذَلِكَ الْقَوْلِ الشَّنِيعِ، فَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ[1]، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُمُ الْيَهُودُ[2]. وَمُرَادُهُمْ مِنْ ذَلِكَ: الطَّعْنُ فِي رِسَالَتِهِ ﷺ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، فَقِيلَ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْزَامِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾[الأنعام:٩١] فَإِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ، فَلِمَ لَا تُجَوِّزُوْنَ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَالكَلَامُ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوَّاتِ مُفَصَّلٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ[3]. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ إِنْكَارَهَا مِنْ سُنَنِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفِي النَّاسِ الْيَوْمَ كَثِيرٌ مِمَّنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ وَمُعْوَجِّ طَرِيقِهِمْ.

---

(١) وهو صحيح عن مجاهد. أخرجه ابن جرير (٩/٣٩٦و٣٩٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/١٣٤١و١٣٤٣) ونقل ابن كثير هذا القول عن ابن عباس وعبدالله بن كثير.

قلت: أما عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو عند الطبري، وفي سنده عبدالله بن صالح، وهو ضعيف، وأما عن عبدالله بن كثير فهو أحد رواة هذا القول عن مجاهد، هذا الذي وقفت عليه، واختار هذا القول الطبري في "تفسيره"، وابن كثير أيضًا في "تفسيره".

(٢) انظر: "تفسير الطبري" (٩/٣٩٣ـ٣٩٦) ورأيته صح عن قتادة عند الطبري.

(٣) انظر كتاب: "النبوات" لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

٣٥- جحودهم القدر واحتجاجهم به على الله

(... الخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ): جُحُودُ الْقَدَرِ.
وَالِاحْتِجَاجُ بِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى.
وَمُعَارَضَةُ شَرْعِ اللهِ بِقَدْرِ اللهِ.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ غَوَامِضِ مَسَائِلِ الدِّينِ، وَالْوُقُوفُ عَلَى سِرِّهَا عَسِرٌ، إِلَّا عَلَى مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى، وَلِابْنِ الْقَيِّمِ كِتَابٌ جَلِيلٌ فِي هَذَا الْبَابِ سَمَّاهُ «شِفَاءُ الْعَلِيلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ»[١] وَقَدْ أَبْطَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام:١٤٨-١٤٩].

تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[الأنعام:١٤٨] حِكَايَةٌ لِفَنٍّ آخَرَ مِنْ أَبَاطِيلِهِمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٤٨] لَمْ يُرِيدُوا بِهَذَا الْكَلَامِ الاعْتِذَارَ عَنِ ارْتِكَابِ الْقَبِيحِ؛ إِذْ لَمْ يَعْتَقِدُوا قُبْحَ أَفْعَالِهِمْ، بَلْ هُمْ كَمَا نَطَقَتْ بِهِ الْآيَاتُ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ؛ لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى، وَأَنَّ التَّحْرِيمَ إِنَّمَا كَانَ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَا مُرَادُهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا الِاحْتِجَاجُ عَلَى أَنَّ مَا ارْتَكَبُوهُ حَقٌّ وَمَشْرُوعٌ وَمَرْضِيٌّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، عَلَى أَنَّ الْمَشِيئَةَ وَالْإِرَادَةَ تُسَاوِي الْأَمْرَ وَتَسْتَلْزِمُ الرِّضَا، كَمَا زَعَمَتِ الْمُعْتَزِلَةُ[٢].

---

(١) وقد طبع مرارًا.

(٢) المعتزلة هي: فرقة أسسها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، واعتزلوا الحسن البصري رحمه الله، واعتزلوا قول المسلمين قاطبة في: أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار. وتطور بهم الأمر حتى صار =

فَيَكُونُ حَاصِلُ كَلَامِهِمْ: أَنَّ مَا نرتكبه مِنَ الشِّرْكِ وَالتَّحْرِيمِ وَغَيْرِهِمَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشِيئَةُ اللهِ تَعَالَى وَإِرَادَتُهُ، وَكُلُّ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشِيئَتُهُ سُبْحَانَهُ وَإِرَادَتُهُ فَهُوَ مَشْرُوعٌ وَمَرْضِيٌّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى. وَبَعْدَ أَنْ حَكَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ عَنْهُمْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الأنعام:١٤٨] وَهُمْ أَسْلَافُهُمُ الْمُشْرِكُونَ.

وَحَاصِلُهُ: أَنَّ كَلَامَهُمْ يَتَضَمَّنُ تَكْذِيبَ الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- وَقَدْ دَلَّتِ الْمُعْجِزَةُ عَلَى صِدْقِهِمْ. أَوْ نَقُولُ: حَاصِلُهُ أَنَّ مَا شَاءَ اللهُ يَجِبُ، وَمَا لَمْ يَشَأْ يَمْتَنِعُ، وَكُلُّ مَا هَذَا شَأْنُهُ فَلَا تَكْلِيفَ بِهِ؛ لِكَوْنِهِ مَشْرُوطًا بِالِاسْتِطَاعَةِ، فَيُنْتِجُ أَنَّ مَا ارْتَكَبَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ لَمْ يَتَكَلَّفْ بِتَرْكِهِ وَلَمْ يُبْعَثْ لَهُ نَبِيٌّ. فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: بِأَنَّ هَذِهِ كَلِمَةُ صِدْقٍ أُرِيدَ بِهِ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهَا أَنَّ الرُّسُلَ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- فِي دَعْوَاهُمُ الْبِعْثَةَ وَالتَّكْلِيفَ كَاذِبُونَ. وَقَدْ ثَبَتَ صِدْقُهُمْ بِالدَّلَائِلِ الْقَطْعِيَّةِ، وَلِكَوْنِ ذَلِكَ صِدْقًا أُرِيدَ بِهِ بَاطِلٌ ذَمَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالتَّكْذِيبِ. وَوُجُوبِ وُقُوعِ مُتَعَلَّقِ الْمَشِيئَةِ لَا يُنَافِي صِدْقَ دَعْوَى الْبَعْثِ وَالتَّكْلِيفِ؛ لِأَنَّهُمَا لِإِظْهَارِ الْمَحَجَّةِ وَإِبْلَاغِ الْحُجَّةِ.

﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام:١٤٨] أَيْ: نَالُوا عَذَابَنَا الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ، وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا مُدَّخَرًا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ الذَّوْقَ أَوَّلُ إِدْرَاكِ الشَّيْءِ.

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ [الأنعام:١٤٨] أَيْ: هَلْ لَكُمْ مِنْ عِلْمٍ بِأَنَّ الْإِشْرَاكَ وَسَائِرَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مَرْضِيٌّ عند اللهِ تَعَالَى، فَتُظْهِرُوهُ لَنَا بِالْبُرْهَانِ؟

= هم خمسة أصول، وتفرقوا إلى عدة فرق. انظر: «الفرق بين الفرق» (ص٢٤وص١١٤) وكتاب «المعتزلة» لعواد المعتق.

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أُمَّ اسْتَوْجَبُوا[١] التَّوْبِيخَ عَلَى قَوْلِهِمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَهْزَأُونَ بِالدِّينِ، وَيَبْغُونَ رَدَّ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-؛ حَيْثُ قَرَعَ مَسَامِعَهُمْ مِنْ شَرَائِعِ الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- تَفْوِيضُ الْأُمُورِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَحِينَ طَالَبُوهُمْ بِالْإِسْلَامِ وَالْتِزَامِ الْأَحْكَامِ احْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِمَا أَخَذُوهُ مِنْ كَلَامِهِمْ مُسْتَهْزِئِينَ بِهِمْ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَلَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ ذِكْرَ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ عقْدُهُمْ، كَيْفَ لَا وَالْإِيمَانُ بِصِفَاتِ اللهِ تَعَالَى فَرْعُ الْإِيمَانِ بِهِ عَزَّ شَأْنُهُ، وَهُوَ عَنْهُمْ مَنَاطَ الْعَيُّوقِ[٢].

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام:١٤٨] أَيْ: تَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ تَعَالَى. ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام:١٤٩] أَيِ: الْبَيِّنَةُ الْوَاضِحَةُ الَّتِي بَلَغَتْ غَايَةَ الْمَتَانَةِ وَالْقُوَّةِ عَلَى الْإِثْبَاتِ، وَالْمُرَادُ بِهَا فِي الْمَشْهُورِ: الْكِتَابُ وَالرَّسُولُ وَالْبَيَانُ.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام:١٤٩] بِالتَّوْفِيقِ لَهَا وَالْحَمْلِ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ شَاءَ هِدَايَةَ الْبَعْضِ الصارفين اخْتِيَارَهُمْ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَضَلَالِ آخَرِينَ صَرَفُوهُ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ذَكَرَ وَجْهًا آخَرَ فِي تَوْجِيهِ مَا فِي الْآيَةِ، وَهُوَ: أَنَّ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا كَانَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ واخْتِيَارِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ، وَأَنَّ إِشْرَاكَهُمْ إِنَّمَا صَدَرَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الِاضْطِرَارِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ الْحُجَّةَ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِذَلِكَ، فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ عَدَمَ الِاخْتِيَارِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَشَبَّهَهُمْ بِمَنِ اغْتَرَّ قَبْلَهُمْ بِهَذَا الْخَيَالِ؛ فَكَذَّبَ الرُّسُلَ وَأَشْرَكَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَاعْتَمَدَ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَرَامَ إِفْحَامَ الرُّسُلِ

---

(١) أي: استحقوا وانظر: «اللسان» مادة (وجب).

(٢) هو: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا من ناحية الشمال، ويطلع قبل الجوزاء. «اللسان» مادة: (عوق).

بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ. ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ لَهُ تَعَالَى لَا لَهُمْ، ثُمَّ أَوْضَحَ سُبْحَانَهُ أَنَّ كُلَّ وَاقِعٍ وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ مِنْهُمْ إِلَّا مَا صَدَرَ عَنْهُمْ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ مِنْهُمُ الْهِدَايَةَ لَاهْتَدَوْا أَجْمَعِينَ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنْ يَتَمَحَّضَ وَجْهُ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَتَتَخَلَّصَ عَقِيدَةُ نُفُوذِ السُّنَّةِ وَعُمُومِ تَغَلْغُلِهَا بِكُلِّ كَائِنٍ عَنِ الرَّدِّ، وَيَنْصَرِفُ الرَّدُّ إِلَى دَعْوَاهُمْ سَلْبَ الِاخْتِيَارِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّ إِقَامَتَهُمُ الْحُجَّةَ بِذَلِكَ خَاصَّة.

وَإِذَا[1] تَدَبَّرْتَ الْآيَةَ وَجَدْتَ صَدْرَهَا دَافِعًا لِصُدُورِ الْجَبْرِيَّةِ، وَعَجُزَهَا مُعْجِزًا لِلْمُعْتَزِلَةِ؛ إِذِ الْأَوَّلُ: مُثْبِتٌ أَنَّ لِلْعَبْدِ اخْتِيَارًا وَقُدْرَةً عَلَى وَجْهٍ يَقْطَعُ حُجَّتَهُ وَعُذْرَهُ فِي الْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ، وَالثَّانِي: مُثْبِتٌ نُفُوذَ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى فِي الْعَبْدِ، وَأَنَّ جَمِيعَ أَفْعَالِهِ عَلَى وَفْقِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَبِذَلِكَ تَقُومُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ وَجَّهَ الْآيَةَ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ رَدُّ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- عَلَى مَعْنَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى شَاءَ شِرْكَنَا وَأَرَادَهُ مِنَّا، وَأَنْتُمْ تُخَالِفُونَ إِرَادَتَهُ حَيْثُ تَدْعُونَنَا إِلَى الْإِيمَانِ، فَوَبَّخَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِوُجُوهٍ عِدَّةٍ:

مِنْهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام:١٤٩] فَإِنَّهُ بِتَقْدِيرِ الشَّرْطِ، أَيْ: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾[الأنعام:١٤٩] بَدَلٌ مِنْهُ عَلَى سَبِيلِ الْبَيَانِ، أَيْ: لَوْ شَاءَ لَدَلَّ كُلًّا مِنْكُمْ وَمِنْ مُخَالِفِيكُمْ عَلَى دِينِهِ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ لَكَانَ الْإِسْلَامُ أَيْضًا بِالْمَشِيئَةِ، فَيَجِبُ أَلَّا تَمْنَعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا وَجَبَ بِزَعْمِكُمْ أَلَّا يَمْنَعَكُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ، فَيَلْزَمُكُمْ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مُخَالَفَةٌ وَمُعَادَاةٌ، بَلْ

---

(١) في "الخطيب": (وإذ).

مُوَافَقَةٌ وَمُوَالَاةٌ.

وَحَاصِلُهُ: أَنَّ مَا خَالَفَ مَذْهَبَكُمْ مِنَ النِّحَلِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكُمْ حَقًّا؛ لِأَنَّهُ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى فَيَلْزَمُ تَصْحِيحَ الْأَدْيَانِ الْمُتَنَاقِضَةِ.

وَفِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]. الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ كَالْكَلَامِ عَلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَلَا تَرَاهُمْ يَتَشَبَّثُونَ بِالْمَشِيئَةِ إِلَّا عِنْدَ انْخِدَاعِ الْحُجَّةِ. أَلَا تَرَى كَيْفَ خَتَمَ بِنَحْوِ آخِرِ مُجَادَلَاتِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَكَذَلِكَ فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۞ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۞ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۞ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٩-٢٢]. وَيَكْفِي فِي الِانْقِلَابِ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩] وَالْمُرَادُ بِمَا حَرَّمُوهُ: السَّوَائِبُ[(١)] وَالبَحَائِرُ[(٢)] وَغَيْرُهَا. وَفِي

---

(١) السوائب: أخرج البخاري في «صحيحه» (٤٦٢٣) عن سعيد بن المسيب أنه قال: السائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يُحمل عليها شيء. قال الحافظ: قال أبو عبيدة: كانت السائبة من جميع الأنعام، وتكون من النذور للأصنام فتسيب فلا تحبس عن مرعى ولا عن ماء ولا يركبها أحد، قال: وقيل السائبة لا تكون إلا من الإبل، كان الرجل ينذر إن برئ من مرضه أو قدم من سفره ليسيبنَّ بعيرًا، وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: السائبة كانوا يسيبون بعض إبلهم فلا تمنع حوضًا أن تشرب فيه.

(٢) البحائر: جمع بَحِيْرَة قال ابن المسيب كما في البخاري (٤٦٢٣) البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت قال الحافظ: وهي الأصنام فلا يحلبها أحد من الناس، والبحيرة فعيلة بمعنى مفعولة، وهي التي بُحِرَتْ أذنها أي: خرمت، قال أبو عبيدة: جعلها قوم آخرون: بل البحيرة الناقة كذلك، وخلوا

تَخْصِيصِ الإِشْتِرَاكِ وَالتَّحْرِيمِ بِالنَّفْيِ؛ لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ وَأَشْهَرُ مَا هُمْ عَلَيْهِ. وَغَرَضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَالطَّعْنُ فِي الرِّسَالَةِ رَأْسًا، فَإِنَّ حَاصِلَهُ، أَيْ: مَا شَاءَ اللهُ يَجِبُ وَمَا لَمْ يَشَأْ يَمْتَنِعْ، فَلَوْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَاءَ أَنْ نُوَحِّدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَنُحَلِّلَ مَا أَحَلَّهُ وَلَا نُحَرِّمَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمْنَا كَمَا تَقُولُ الرُّسُلُ، وَيَنْقُلُونَهُ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى، لَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا شَاءَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الْإِشْرَاكِ وَتَحْلِيلِ مَا أَحَلَّهُ، وَعَدَمِ تَحْرِيمِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَحَيْثُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يَشَأْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بَلْ شَاءَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ مَا يَقُولُهُ الرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ. فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ [النحل:٣٥] مِنَ الْأُمَمِ، أَيْ: أَشْرَكُوا بِاللهِ تَعَالَى، وَحَرَّمُوا مِنْ دُونِهِ مَا حَرَّمُوا، وَجَادَلُوا رُسُلَهُمْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ. ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] أَيْ: لَيْسَتْ وَظِيفَتُهمْ إِلَّا الْبَلَاغَ لِلرِّسَالَةِ، الْمُوَضِّحَ طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْمُظْهِرَ أَحْكَامَ الْوَحْيِ الَّتِي مِنْهَا تَعَلُّقُ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى بِاهْتِدَاءِ مَنْ صَرَفَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ إِلَى تَحْصِيلِ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩].

= عنها فلم تركب ولم يضربها فحل، وأما قوله: «فلا يحلبها أحد من الناس» فهكذا أطلق نفي الحلب، وكلام أبي عبيدة يدل على أن المنفي إنما هو الشرب الخاص، قال أبو عبيدة: كانوا يحرمون وبرها ولحمها وظهرها ولبنها على النساء ويحلون ذلك للرجال، وما ولدت فهو بمنزلتها، وإن ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: البحيرة من الإبل كانت الناقة إذا نتجت خمس بطون؛ فإن كان الخامس ذكرًا كان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى بُتِكَتْ أذنها ثم أرسلت فلم يجزوا لها وبرًا ولم يشربوا لها لبنًا، ولم يركبوا لها ظهرًا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء: الرجال والنساء، ونقل أهل اللغة في تفسير البحيرة هيئات أخرى تزيد بما ذكرت على العشر، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، والبحر شق الأذن، كان ذلك علامة لها.

وَأَمَّا إِلْجَاؤُهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَتَنْفِيذُ قَوْلِهِمْ عَلَيْهِمْ شَاءُوا أَوْ أَبَوْا -كَمَا هُوَ مُقْتَضَى اسْتِدْلَالِهِمْ- فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ وَظِيفَتهِمْ، وَلَا مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا التَّكْلِيفُ، حَتَّى يَسْتَدِلَّ بِعَدَمِ ظُهُورِ آثَارِهِ عَلَى عَدِمِ حَقِيقَةِ الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-، أَوْ عَلَى عَدِمِ تَعَلُّقِ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، فَإِنَّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ مِنَ الْأَفْعَالِ لَابُدَّ فِي تَعَلُّقِ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى بِوُقُوعِهِ، مِنْ مُبَاشَرَتِهِمُ الِاخْتِيَارِيَّةِ، وَصَرْفِ اخْتِيَارِهِمُ الْجُزْئِيِّ إِلَى تَحْصِيلِهِ، وَإِلَّا لَكَانَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ اضْطِرَارِيَّيْنِ.

وَالْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا مُسْتَوْفَى فِي تَفْسِيرِ "رُوحِ الْمَعَانِي"[1] وَغَيْرِهِ. فَجُحُودُ الْقَدَرِ وَالِاحْتِجَاجُ بِهِ عَلَى اللهِ وَمُعَارَضَةُ شَرْعِ اللهِ بِقَدَرِهِ، كل ذَلِكَ مِنْ ضَلَالَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ، وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، فَمَنْ زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنْ هَذِهِ الْجَادَّةِ، كَانَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي رَدَّ عَلَيْهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

٣٦- مسبة الدهر

> (... السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ): مَسَبَّةُ الدَّهْرِ. كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرَادَ بَيَانَ أَحْكَامِ ضَلَالِهِمْ وَالخَتْمِ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَجَعْلِ غِشَاوَة عَلَى أَبْصَارِهِمْ، فَحَكَى[2] عَنْهُمْ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية:٢٤] التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية:٢٤] أَيْ: تَمُوتُ طَائِفَةٌ وتحي طَائِفَةٌ وَلَا حَشْرَ أَصْلًا. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ كَثِيرًا مِنْ عُبَّادِ

---

(١) وهو فيما ينقله من تفسير الآيات يأخذه من "روح المعاني" لجده إما نص ذلك القول أو ملخصه، كما سبق الإشارة إلى هذا في ترجمة الشارح.

(٢) انظر ما سبق ذكره في المسألة (٢٥).

الْأَصْنَامِ كَانَ يَقُولُ بِالتَّنَاسُخِ، وَعَلَيْهِ فَالْمُرَادُ بِالْحَيَاةِ: إِعَادَةُ الرُّوحِ لِبَدَنٍ آخَرَ.

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية:٢٤] أَيْ: طُولُ الزَّمَانِ. وَإِسْنَادُهُمُ الْإِهْلَاكَ إِلَى الدَّهْرِ إِنْكَارٌ مِنْهُمْ لِمَلَكِ الْمَوْتِ وَقَبْضِهِ الْأَرْوَاحَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، وَكَانُوا يُسْنِدُونَ الْحَوَادِثَ مُطْلَقًا إِلَيْهِ؛ لِجَهْلِهِمْ أَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى؛ وَأَشْعَارُهُمْ لِذَلِكَ مَمْلُوءَةٌ مِنْ شَكْوَى الدَّهْرِ(١)، وَهَؤُلَاءِ مُعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَى، فَهُمْ غَيْرُ الدَّهْرِيَّةِ؛ فَإِنَّهُمْ مَعَ إِسْنَادِهِمُ الْحَوَادِثَ إِلَى الدَّهْرِ لَا يَقُولُونَ بِوُجُودِهِ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٤٣]. وَالْكُلُّ يَقُولُ: بِاسْتِقْلَالِ الدَّهْرِ بِالتَّأْثِيرِ. وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ(٢): «**لَا يَسُبَّ أَحَدُكُمُ الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**» وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ وَالْحَاكِمِ(٣): «**قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ**

---

(١) مثل قول عمرو بن القمنة النصراني، كما في «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/١٤٦):

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يرمي وليس برامي

وقول الآخر:

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... رَكرُّ الغداة ومر العشي

وقال أعشى بكر كما في «ديوانه» (ص٢٥٨):

فاستأثر الدهرالغداة بهم ... والدهر يرميني ولا أرمي

يا دهر قد أكثرت فجعتنا ... بسراتنا ووقرت في العظم

وسلبتنا ما ليس لعقبنا ... يا دهر ما أنصفتنا في الحكم

وقول الآخر:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال

وكنت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

والشعر في ذلك كثير في القديم والحديث. انظر: «شرح يوسف السعيد على مسائل الجاهلية» (١/٤٧٨-٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٧)، وهو أيضًا في البخاري (٦١٨٢) عن أبي هريرة ﵁.

(٣) كذا عزاه المصنف إلى الحاكم، وهو فيه (٢/٤٥٣)، وإلى أبي داود (٥٢٧٤) وهو آخر حديث في=

آدَمَ؛ يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ! فَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». وَرَوَى الْحَاكِمُ[1] أَيْضًا: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي فَلَمْ يُقْرِضْنِي، وَشَتَمَنِي عَبْدِي وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَيَقُولُ: وَادَهْرَاهُ! وَأَنَا الدَّهْرُ». وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ[2]: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَنَا الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي أُجَدِّدُهَا، وَأُبْلِيهَا، وَآتِي بِمُلُوكٍ بَعْدَ مُلُوكٍ». وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْآتِي بِالْحَوَادِثِ، فَإِذَا سَبَبْتُمُ الدَّهْرَ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ، وَقَعَ السَّبُّ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٤] أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ -بِمَا ذُكِرَ مِنْ قِصَرِ الْحَيَاةِ عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا وَنِسْبَةِ الْإِهْلَاكِ إِلَى الدَّهْرِ- عِلْمٌ مُسْتَنِدٌ إِلَى عَقْلٍ أَوْ نَقْلٍ.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] أَيْ: مَا هُمْ إِلَّا قَوْمٌ قُصَارَى أَمْرِهِمُ الظَّنُّ وَالتَّقْلِيدُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَصِحُّ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهِ فِي الْجُمْلَةِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّهْرِيِّينَ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ يَقُولُ بِإِسْنَادِ الْحَوَادِثِ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى، كَالدَّهْرِ فَذَلِكَ لَيْسَ لَهُ مُسْتَنَدٌ عَقْلِيٌّ وَلَا نَقْلِيٌّ، بَلْ

= أبي داود، ولكن الحديث في مسلم (٢٢٤٦) (٣) وهو عندهم جميعًا من حديث أبي هريرة واللفظ واحد؛ فكان الأولى أن يعزى إلى مسلم.

(١) حسن. أخرجه الحاكم (٣/ ٤٥٣) وأحمد (٢/ ٣٠٠) وأبو يعلى (٦٤٦٦) وغيرهم من طريق ابن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعًا به، وابن إسحاق صدوق مدلس وقد عنعن، ولكن تابعه إبراهيم بن طهمان كما في «مشيخته» (١٠٥) وابن أبي حازم كما عند ابن أبي عاصم في «السنة» (٥٩٨) ببعضه كلاهما عن العلاء به.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٣٧) من طريق هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعًا به. وهشام بن سعد ضعيف، لكنه من أثبت الناس في زيد بن أسلم فيحسن حديثه فيه، ولكن بقي معنا شيخ البيهقي فيه وهو أبو نصر بن قتادة ولم نجد ترجمته، بالرغم من أن البيهقي قد أخرج عنه شيئًا كثيرًا، وكان شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللهُ يفيدنا بأنه لم يقف على ترجمته، والله المستعان.

هُوَ مَحْضُ جَهْلٍ، وَقَائِلُهُ جَاهِلٌ فِي أَيِّ عَصْرٍ كَانَ، وَلِأَهْلِ زَمَانِنَا حَظٌّ وَافِرٌ مِنْ هَذَا الِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

٣٧- إضافة نعم الله إلى غيره

(... السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ): إِضَافَةُ نِعَمِ اللهِ إِلَى غَيْرِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل:٨٣].

وَقَدْ عَدَّدَ اللهُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل:٨١-٨٣].

فَقَوْلُهُ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ... إلخ [النحل:٨٣] اسْتِئْنَافٌ؛ لِبَيَانِ أَنَّ تَوَلِّي الْمُشْرِكِينَ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ لَيْسَ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ نِعْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَصْلًا؛ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا أَنَّهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى، ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا بِأَفْعَالِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يُفْرِدُوا مُنْعِمَهَا بِالْعِبَادَةِ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَصْلًا، وَذَلِكَ كُفْرَانٌ مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الْإِنْكَارِ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنْكَارُهُمْ إِيَّاهَا قَوْلُهُمْ: (وَرِثْنَاهَا مِنْ آبَائِنَا)[1].

وَأَخْرَجَ هُوَ وَغَيْرُهُ أَيْضًا، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِاللهِ، أَنَّهُ قَالَ: (إِنْكَارُهُمْ إِيَّاهَا أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: لَوْلَا فُلَانٌ أَصَابَنِي كَذَا وَكَذَا. وَلَوْلَا فُلَانٌ لَمْ أُصِبْ كَذَا وَكَذَا)[2].

---

(١) صحيح عن مجاهد. أخرجه ابن جرير (١٤/ ٣٢٥-٣٢٦) بنحوه، وعزاه السيوطي في «الدر» عند الآية (٨٠) من «النحل»: إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) سنده عند ابن جرير (١٤/ ٣٢٦) ضعيف؛ فهو من طريق ابن وكيع وهو سفيان، ضعيف،=

وَفِي لَفْظٍ: (إِنْكَارُهَا إِضَافَتُهَا إِلَى الْأَسْبَابِ). وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: (إِنْكَارُهُمْ قَوْلُهُمْ: هِيَ بِشَفَاعَةِ آلِهَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى)[1]. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: النِّعْمَةُ هُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، أَيْ: يَعْرِفُونَ أَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- نَبِيٌّ بِالْمُعْجِزَاتِ، ثُمَّ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَجْحَدُونَهُ عِنَادًا: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل:٨٣] أَيِ: الْمُنْكِرُونَ بِقُلُوبِهِمْ غَيْرُ المعترفين بِمَا ذُكِرَ. وَالتَّعْبِيرُ بِالْأَكْثَرِ إِمَّا لِأَنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ؛ لِنُقْصَانِ عَقْلِهِ وَعَدَمِ اهْتِدَائِهِ إِلَيْهِ، أَوْ لِعَدَمِ نَظَرِهِ فِي الْأَدِلَّةِ، نَظَرًا يُؤَدِّي إِلَى الْمَطْلُوبِ، أَوْ لِأَنَّهُ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ؛ لِكَوْنِهِ لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْمُكَلَّفِينَ لِصِغَرِهِ وَنَحْوِهِ.

وَإِمَّا لِأَنَّهُ يُقَامُ مَقَامَ الْكُلِّ، فَإِسْنَاد الْمَعْرِفَةِ وَالْإِنْكَارِ الْمُتَفَرِّعِ عَلَيْهَا إِلَى ضَمِيرِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، مِنْ بَابِ إِسْنَادِ حَالِ الْبَعْضِ إِلَى الْكُلِّ.

وَمِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨١-٨٢]. أَيْ: تَقُولُونَ: «**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**». رَوَى مُسْلِمٌ[2] وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ، وَمِنْهُمْ كَافِرٌ. قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةٌ وَضَعَهَا اللهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:** ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ **حَتَّى بَلَغَ:** ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ إِسْنَادَ النِّعَمِ إِلَى غَيْرِ مُنْعِمِهَا الْحَقِيقِيِّ كُفْرَانٌ لَهَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا مَذْهَبَ الْعَرَبِ فِي الْأَنْوَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ

= وكذلك راويه عن عون بن عبدالله هو الليث بن أبي سُليم وهو ضعيف أيضًا، والأثر عزاه السيوطي في «الدر» إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(١) ذكر هذا القول ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٣٢٦) ولم يسنده إلى أحد.

(٢) أخرجه مسلم (٧٣). وقد أخرج البخاري (١٠٣٨) ومسلم (٧١) بنحوه أيضًا عن زيد بن خالد ﷺ.

وَفَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً، وَذَكَرْنَا شِعْرَهُمُ الدَّالَّ عَلَى مَذْهَبِهِمْ هَذَا[١]، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

٣٨- الكفر بآيات الله

(... الثَّامِنَةُ وَالثَّلاثُونَ): الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللهِ.

وَالنُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۞ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف:١٠٥-١٠٦]. بَعْدَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَٰئِكَ...﴾ إلخ [الكهف:١٠٣-١٠٥]. فَقَوْلُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، مِنْهُ مَسُوقٌ لِتَكْمِيلِ تَعْرِيفِ الْأَخْسَرِينَ، وَتَبْيِينِ خُسْرَانِهِمْ وَضَلَالِ سَعْيِهِمْ وَتَعْيِينِهِمْ، بِحَيْثُ يَنْطَبِقُ التَّعْرِيفُ عَلَى الْمُخَاطَبِينَ. أَيْ: أُولَئِكَ المنعوتون بِمَا ذُكِرَ مِنْ ضَلَالِ السَّعْيِ وَالْحُسْبَانِ الْمَذْكُورِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بِدَلَائِلِهِ سُبْحَانَهُ الدَّاعِيَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، الشَّامِلَةِ لِلسَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ[٢]، أَيْ: لَمْ يُؤْمِنُوا بِذَلِكَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أَيْ: فَنَزْدَرِي بِهِمْ وَنَحْتَقِرُهُمْ.

---

(١) يشير إلى ما كتبه في كتابه «بلوغ الأرب في أحوال العرب».

(٢) قال ابن عادل في «اللباب» (١٢/ ٥٧٣): لقاء الله عبارة عن رؤيته؛ لأنه يقال: لقيت فلانًا، أي: رأيته. اهـ

قال شيخ الإسلام كما في «المجموع» (٦/ ٤٧١ - ٤٧٥): (وفساد قول الذين يجعلون المراد: لقاء الجزاء دون لقاء الله معلوم بالاضطرار بعد تدبر الكتاب والسنة، يظهر فساده من وجوه. ثم ذكر تسعة أوجه). فراجعها إن شئت.

وَمِنَ النُّصُوصِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ بَعْضَ الْآيَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ مُعْرِضًا عَنْهَا، وَهَاجِرًا لَهَا، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ مَنْ هُوَ أَدْهَى وَأَمَرُّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ.

٣٩- اختيار كتب الباطل ونبذ آيات الله

(... التَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ): اشْتِرَاءُ كُتُبِ الْبَاطِلِ وَاخْتِيَارُهَا عَلَيْهَا.

أَيْ: عَلَى الْآيَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٩٩-١٠٣].

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أَيْ: اسْتَبْدَلَ بِكِتَابِ اللهِ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أَيْ: نَصِيبٍ ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أَيْ: وَاللهِ! لَبِئْسَ شَيْئًا شَرَوْا بِهِ حُظُوظَ أَنْفُسِهِمْ، أَيْ: بَاعُوهَا أَوْ شَرَوْهَا فِي زَعْمِهِمْ ذَلِكَ الشِّرَاءَ. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾. أَيْ: بِالرَّسُولِ أَوْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ، أَوْ بِالتَّوْرَاةِ ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أَيِ: الْمَعَاصِيَ الَّتِي حُكِيَتْ عَنْهُمْ. ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: أَنَّ ثَوَابَ اللهِ تَعَالَى خَيْرٌ لَهُمْ. وَبِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ

ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨-٧٩]. وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَحْبَارِ الْيَهُودِ، الَّذِينَ خَافُوا أَنْ تَذْهَبَ رِيَاسَتُهُمْ بِإِبْقَاءِ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حَالِهَا فَغَيَّرُوهَا[1].

٤٠- القدح في حكمة الله تعالى

(... الْأَرْبَعُونَ): الْقَدْحُ فِي حِكْمَتِهِ تَعَالَى.

أَقُولُ: مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ الْقَدْحُ فِي حِكْمَتِهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِحَكِيمٍ فِي خَلْقِهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ مَا لَا حِكْمَةَ لَهُ فِيهِ، وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى بِمَا لَا حِكْمَةَ فِيهِ. وَقَدْ حَكَى[2] اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ

---

(١) يشير إلى ما ذكره السيوطي في "اللباب" (ص١٤) (طبع مكتبة الثقافة) حيث قال: أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في أحبار اليهود. وجدوا صفة النبي مكتوبة في التوراة: أكحل، أعين، جعد الشعر، حسن الوجه، فمحوه؛ حسدًا و بغيًا، وقالوا: نجده طويلًا، أزرق سبط الشعر. قلت والذي في ابن أبي حاتم (١/ ١٥٤) من طريق شَبِيْبِ بن بشير، عن عكرمة، عن ابن عباس... فذكر الآية، ثم قال: أحبار يهود وجدوا صفة النبي ﷺ...، فذكره بأطول مما ذكره السيوطي، وليس فيه، نزلت في أخبار يهود، وأيضًا شبيب بن بشر ضعيف الحديث، قال البخاري فيه: منكر الحديث، كما نقله الترمذي في "العلل الكبير" وفيه توثيق، ولكن الراجح ضعفه. قد أخرج النسائي في "تفسيره" (١١) بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر الآية ثم قال: «نزلت في أهل الكتاب» وصححه شيخنا مقبل الوادعي رحمه الله في "أسباب النزول" (ص٢١).

(٢) انظر ما سبق في المسألة (٢٥).

ﭐلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ النَّاصَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ حِكْمَةٍ وَلَا عِلَّةٍ[1]، عَلَى خِلَافِ مَا يَعْتَقِدُهُ أَهْلُ الْبَاطِلِ مِنَ الجَاهِلِيِّيْنَ، وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّنْ نَفَى الْحِكْمَةَ عَنْ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ طَوِيلَةُ الذَّيْلِ؛ قَدْ كَثُرَ فِيهَا الْخِصَامُ بَيْنَ فِرَقِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْحَقُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ، مِنْ إِثْبَاتِ الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ. وَقَدْ أَطْنَبَ الْكَلَامَ عَلَيْهَا الْحَافِظُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ "شِفَاءُ الْعَلِيلِ فِي مَسَائِلِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ" وَعَقَدَ بَابًا[2] مُفَصَّلًا فِي طُرُقِ إِثْبَاتِ حِكْمَةِ الرَّبِّ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَإِثْبَاتِ الْغَايَاتِ الْمَطْلُوبَةِ وَالْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي فَعَلَ وَأَمَرَ لِأَجْلِهَا. وَمِنْ جُمْلَةِ مَا قَالَ فِي هَذَا الْبَابِ: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْكَرَ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ الخَلْقَ لِغَايَةٍ وَلَا لِحِكْمَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩] وَالْحَقُّ هُوَ الْحُكْمُ وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ الَّتِي

---

(١) لا يلزم وجود العلة فهو سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣] ويجوز وجود العلة. وانظر "اللباب" لابن عادل (١٨/ ١٠٦-١٠٧)، و"الفتح" شرح باب (٥١) من كتاب التفسير.

(٢) قال فيه: الباب الثالث والعشرون في استيفاء شُبَهِ النافين للحكمة والتقليل وذكر الأجوبة عنها.

لِأَجْلِهَا خَلَقَ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: أَنْ يُعْرَفَ اللهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَآيَاتِهِ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُحَبَّ، وَيُعْبَدَ، وَيُشْكَرَ، ويُطَاعَ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى وَيُشَرِّعَ الشَّرَائِعَ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُدَبِّرَ الْأَمْرَ، وَيُبْرِمَ الْقَضَاءَ، وَيَتَصَرَّفَ فِي الْمَمْلَكَةِ بِأَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُثِيبَ وَيُعَاقِبَ، فَيُجَازِي الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، فَيَكُونُ أَثَرُ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ مَوْجُودًا مُشَاهَدًا، فَيُحْمَدُ عَلَى ذَلِكَ وَيُشْكَرُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُعْلِمَ خَلْقَهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَصْدُقَ الصَّادِقَ فَيُكْرِمَهُ وَيَكْذِبَ الْكَاذِبَ فَيُهِينَهُ.

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، عَلَى تَنَوُّعِهَا وَكَثْرَتِهَا فِي الْوُجُودِ الذِّهْنِيِّ وَالْخَارِجِيِّ، فَيَعْلَمُ عِبَادُهُ ذَلِكَ عِلْمًا مُطَابِقًا لِمَا فِي الْوَاقِعِ.

وَمِنْهَا: شَهَادَةُ مَخْلُوقَاتِهِ كُلِّهَا بِأَنَّهُ وَحْدَهُ رَبُّهَا، وَفَاطِرُهَا، وَمَلِيكُهَا، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ إِلَهُهَا وَمَعْبُودُهَا.

وَمِنْهَا: ظُهُورُ أَثَرِ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ؛ فَإِنَّ الْخَلْقَ وَالصُّنْعَ لَازِمُ كَمَالِهِ، فَإِنَّهُ حَيٌّ قَدِيرٌ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا فَاعِلًا مُخْتَارًا.

وَمِنْهَا: أَنْ يُظْهِرَ أَثَرَ حِكْمَتِهِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ؛ بِوَضْعِ كُلٍّ مِنْهَا فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ، وَمَجِيئِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تَشْهَدُ الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ بِحُسْنِهِ، فَتَشْهَدَ حِكْمَتُهُ الْبَاهِرَةُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَنْ يَجُودَ، ويُنْعِمَ، ويَعْفُوَ، وَيَغْفِرَ، وَيُسامِحَ، وَلَابُدَّ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ خَلْقًا وَشَرْعًا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ، وَيُمْدَحَ، وَيُمَجَّدَ، وَيُسَبَّحَ، وَيُعَظَّمَ.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ شَوَاهِدِ رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا الْخَلْقُ. فَخَلَقَ مَخْلُوقَاتِهِ بِسَبَبِ الْحَقِّ، وَلِأَجْلِ الْحَقِّ، وَخَلْقُهَا مُلْتَبِسٌ بِالْحَقِّ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقٌّ: فَمَصْدَرُهُ حَقٌّ، وَغَايَتُهُ حَقٌّ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحَقَّ. وَهُوَ أَثْنَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ نَزَّهُوهُ عَنْ إِيجَادِ الْخَلْقِ، لَا لِشَيْءٍ وَلَا لِغَايَةٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[آل عمران:١٩٠-١٩١]. وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا ظَنُّ أَعْدَائِهِ، لَا ظَنُّ أَوْلِيَائِهِ فَقَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص:٢٧] وَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ عَرَفَهُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ لِحِكْمَةٍ مَطْلُوبَةٍ لَهُ، وَلَا أَمَرَ لِحِكْمَةٍ، وَلَا نَهَى لِحِكْمَةٍ، وَإِنَّمَا يَصْدُرُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ عَنْ مَشِيئَةٍ وَقُدْرَةٍ مَحْضَةٍ، لَا لِحِكْمَةٍ وَلَا لِغَايَةٍ مَقْصُودَةٍ!؟.

وَهَلْ هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِحَقِيقَةِ حَمْدِهِ، بَلِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ إِنَّمَا قَامَ بِالْحِكَمِ وَالْغَايَاتِ، فَهُمَا مَظْهَرَانِ لِحَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَإِنْكَارُ الْحِكْمَةِ إِنْكَارٌ لِحَقِيقَةِ خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ؛ فَإِنَّ الَّذِي أَثْبَتَهُ الْمُنْكِرُونَ مِنْ ذَلِكَ يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ وَيَتَعَالَى عَنْ نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُمْ أَثْبَتُوا خَلْقًا وَأَمْرًا لَا رَحْمَةَ فِيهِ، وَلَا مَصْلَحَةَ، وَلَا حِكْمَةَ، بَلْ يَجُوزُ عِنْدَهُمْ، أَوْ يَقَعُ: أَنْ يَأْمُرَ بِمَا لَا مَصْلَحَةَ لِلْمُكَلَّفِ فِيهِ الْبَتَّةَ، وَيُنْهَى عَمَّا فِيهِ مَصْلَحَةٌ، وَالْجَمِيعُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ.

وَيَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَأْمُرَ بِكُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ، وَيَنْهَى عَنْ جَمِيعِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَيَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَمْ يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُثِيبَ مَنْ عَصَاهُ بَلْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي الْكُفْرِ بِهِ وَالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ يُعْرَفَ خِلَافُ ذَلِكَ مِنْهُ، إِلَّا بِخَبَرِ الرَّسُولِ وَإِلَّا فَهُوَ جَائِزٌ عَلَيْهِ. وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الظَّنِّ وَأَسْوَئِهِ بِالرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَتَنْزِيهُهُ عَنْهُ كَتَنْزِيهِهِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، بَلْ هَذَا هُوَ عَيْنُ الظُّلْمِ الَّذِي يَتَعَالَى اللهُ عَنْهُ. وَالْعَجَبُ الْعُجَابُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَرْبَابِ هَذَا الْمَذْهَبِ يُنَزِّهُونَهُ عَمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَنُعُوتِ الْجَلَالِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ إِثْبَاتَهَا تَجْسِيمٌ وَتَشْبِيهٌ، وَلَا يُنَزِّهُونَهُ عَنْ هَذَا الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ. وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ عَدْلٌ وَحَقٌّ، وَأَنَّ التَّوْحِيدَ عِنْدَهُمْ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، كَمَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِإِنْكَارِ اسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ وَعُلُوِّهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ وَتَكَلُّمِهِ وَتَكْلِيمِهِ وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، فَلَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ عِنْدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إِلَّا بِهَذَا النَّفْيِ، وَذَلِكَ الْإِثْبَاتِ وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ[1]. انْتَهَى الْمَقْصُودُ مِنْ نَقْلِهِ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ[2]. وَإِلَيْهِ سُبْحَانَهُ الْمَآبُ.

٤١- الكفر بالملائكة والرسل والتفريق بينهم

(... الْحَادِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): الْكُفْرُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ

---

(١) وهذا النقل من فوائد هذا الكتاب؛ إذ هو محتفظ بهذا النص المعدوم بين أيدينا الآن من كتاب "شفاء العليل".

(٢) أي: "شفاء العليل" لابن القيم رحمه الله.

ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾... إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۞ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٨٧-٩٩].

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ بَعْضَ الْكِتَابِيِّينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ، أَيْ: يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ جَاهِلِيَّةِ الْيَهُودِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِهِمْ وَعَدَمِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٤٢- الغلو في الأنبياء والرسل

(... الثَّانِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): الْغُلُوُّ فِي الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا

ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١]. وَالْغُلُوُّ[١] فِي الْمَخْلُوقِ أَعْظَمُ سَبَبٍ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالصَّالِحِينَ،[٢] كَمَا كَانَ فِي قَوْمِ نُوحٍ مِنْ عِبَادَةِ نَسْرٍ وَسُوَاعَ وَيَغُوثَ[٣] وَنَحْوِهِمْ، وَكَمَا كَانَ مِنْ عِبَادَةِ النَّصَارَى لِلْمَسِيحِ عليه السلام ، وَمِثْلُ ذَلِكَ: الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

---

(١) هو مجاوزة الحد، يقال: غلا في الدين غلواً، تشدد وتصلب حتى جاوز الحد. انظر: «الصحاح» و«اللسان» والقاموس مادة: (غلو).

قال شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ٣٢٨): الغلو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمده أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك.

(٢) ولهذا اشتد إنكار النبي ﷺ ، فمن ذلك: ما أخرجه أحمد (١/ ٢١٥) وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي قال:« ... **إياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**» وسنده صحيح.

وروى مسلم في «صحيحه» عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:« **هلك المتنطعون**» قالها ثلاثًا. قال النووي في شرحه:« **هلك المتنطعون أي: المتعمقون، المغالون، المجاوزون الحدود في أقوالهم، وأفعالهم**» وهناك أدلة أخرى في الباب. وانظر: الباب (٢٠) من «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب مع سائر شروحه، إن شئت وكتاب «الغلو في الدين» للويحق (ص٦٤-٧٢).

(٣) يشير إلى ما أخرجه البخاري (٤٩٢٠) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود: كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبإ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن: انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت.

وهذا أثر انتقد على البخاري إخراجه؛ لأنه من طريق عطاء وهو ابن أبي مسلم على الصحيح، وقد ضعف من جهة حفظه، ولم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد بسطت القول عن ذلك في كتابي: «التيسير لمعرفة المشهور من أسانيد وكتب التفسير» (ص ١٠٧-١١٤).

٤٣- الجدال بغير علم

(... الثَّالِثَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): الْجِدَالُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ.

كَمَا تَرَى كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ يُجَادِلُونَ أَهْلَ الْعِلْمِ عِنْدَ نَهْيِهِمْ عَمَّا أَلِفُوهُ مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَهِيَ صِفَةٌ جَاهِلِيَّةٌ نَهَانَا اللهُ تَعَالَى عَنِ التَّخَلُّقِ بِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۞ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٦].

أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ[1] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ، وَأَحْبَارُ يَهُودَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ، فَقَالَتِ الْأَحْبَارُ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا نَصْرَانِيًّا، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ الْمُنَادِيَةَ عَلَى جَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ رَاجَعَ التَّفْسِيرَ.

٤٤- الكلام في الدين بلا علم

قَالَ الشَّيْخُ: (... الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): الْكَلَامُ فِي الدِّينِ بِلَا عِلْمٍ.

أَقُولُ: أَجْمَلَ الشَّيْخُ رحمه الله الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كُلَّ الْإِجْمَالِ كَمَا فَعَلَ مِثْلَ

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ٤٨١) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٨٤) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس.

فذكره بأطول مما هاهنا. ومحمد بن أبي محمد مجهول؛ تفرد بالرواية عنه ابن إسحاق، كما في «التقريب»، وانظر القول مفصلاً عن هذه السلسلة في كتابي: «التيسير» (ص٦١).

ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ، وَمَا أَحَقَّهَا بِالتَّفْصِيلِ!! وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكِتَابِيِّينَ شَرَّعُوا فِي الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ.

أَمَّا الْعَرَبُ فَقَدْ كَانَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ-، إِلَى أَنْ ظَهَرَ فِيهِمُ الْخُزَاعِيُّ[1] فَغَيَّرَ وَبَدَّلَ وَابْتَدَعَ بِدَعًا كَثِيرَةً وَأَغْرَى الْعَرَبَ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وَحَمَى الْحَامَ وَاسْتَقْسَمَ بِالْأَزْلَامِ[2] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فَصَّلْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ[3]. وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ جَهْلَ الْعَرَبِ وَمَا ابْتَدَعُوهُ فَاقْرَأْ سُورَةَ الْأَنْعَامِ؛ فَإِنَّ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ ضَلَالَاتِهِمْ وَمُبْتَدَعَاتِهِمْ.

وَأَمَّا الْجَاهِلِيُّونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَقَدِ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ابْتَدَعُوا لَهُمْ فِي الدِّينِ بِدَعًا وَحَلَّلُوا وَحَرَّمُوا مَا اشْتَهَتْهُ أَنْفُسُهُمْ، فَقَبِلُوا ذَلِكَ مِنْهُمْ وَأَطَاعُوهُمْ عَلَيْهِ[4]، مَعَ

---

(١) هو: عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف الخزاعي. انظر: «الفتح» شرح حديث رقم (٣٥٢٠).

(٢) انظر: «السيرة» لابن هشام (١/ ٧٧)، و«البخاري مع الفتح» حديث رقم (٤٦٢٣) و«البداية والنهاية» (٣/ ١٨٥ - ٢٠٢).

(٣) في كتابه: «بلوغ الأرب في أحوال العرب» (٢/ ١٩٤ وما بعدها).

(٤) يشير إلى ما أخرجه الطبري (١١/ ٤١٧-٤١٨) والبخاري في «التاريخ» (٧/ ١٠٦) والطبراني (١٧/ ٢١٨)، وغيرهم من طريق غُطَيْفِ بن أَعْيَنَ، عم مصعب بن سعد، عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك**». قال: فطرحته، وانتهيت إليه، وهو يقرأ سورة براءة، فقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١] قال: قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. فقال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: قلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**».

قلت: وغطيف ضعيف. الحديث، ورواه ابن سعد في «الطبقات» من طريق الواقدي، وهو متروك، ورواه ابن مردويه من طريق عمران القطان، عن خالد العبدي، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عدي بن حاتم... فذكره، وعمران ضعيف الحديث وخالد=

أَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا يَكُونُ بتشريع اللهِ وَوَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-، وَلَا يَكُونُ بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَبِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ، فَكُلُّ مَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ. وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى الْيَهُودَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَقَالَ عَزَّ اسْمُهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧٨]. فَمَنْ أَوَّلَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى حَسَبِ شَهَوَاتِهِ وَبِمُقْتَضَى هَوَاهُ فَهُوَ أَيْضًا مِنْ قَبِيلِ الَّذِينَ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ. وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ كَثِيرٌ مِنْ كُتُبِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْآرَاءِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ مِنْ دَلَائِلِ الشَّرِيعَةِ[1]. فَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى مِنْ صَوْلَةِ الْبَاطِلِ وَخُمُولِ الْحَقِّ.

٤٥- الكفر باليوم الآخر

(... الْخَامِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): الْكُفْرُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالتَّكْذِيبُ بِلِقَاءِ اللهِ، وَبَعْثِ الْأَرْوَاحِ، وَبِبَعْضِ مَا ذَكَرَتْهُ الرُّسُلُ مِنْ صِفَاتِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾[الكهف:١٠٣-١٠٥]. الْآيَة. وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ عَلَيْهَا قَرِيبًا[2]. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا

= العبدي لم أعرفه والحديث ضعيف، وقد حسنه العلامة الألباني في «صحيح الترمذي»، وانظر إلى: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٥٣٨).

(١) التي دخلت على أيدي أهل الكلام والفلسفة، التي أدخلها المأمون العباسي عبدالله بن هارون الرشيد عفا الله عنه، وانظر: «السير» (١٠/ ٢٧٢-٢٩٠).

(٢) في المسألة (٣٨).

يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. وَلِقَوْمِ عَصْرِنَا[١] مِنْ هَذَا الِاعْتِقَادِ الْجَاهِلِيِّ حَظٌّ وَافِرٌ وَنَصِيبٌ كَامِلٌ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، ويذرهم فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، نَسْأَلُهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ لِلْهِدَايَةِ.

٤٦- التكذيب بآية: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]

(... السَّادِسَةُ والأربعون): التكذيب بقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَدِينُ اللهُ تَعَالَى الْعِبَادَ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيُثِيبُهم عَلَى الْخَيْرَاتِ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، وَالتَّكْذِيبُ بِهَذَا الْيَوْمِ متفرع عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

٤٧- التكذيب بآية: ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ [البقرة:٢٥٤]

(... السَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): التَّكْذِيبُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]. وَالْخُلَّةُ الْمَوَدَّةُ وَالصَّدَاقَةُ. وَمَعْنَى: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ [البقرة:٢٥٤] أَيْ: لَا أَحَدَ يَشْفَعُ

---

(١) كالبعثيين والإشتراكيين والملاحدة ممن لا دين لهم.

لِأَحَدٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الرَّحْمَنُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى، وَأَرَادَ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالْمُرَادُ مِنْ وَصْفِهِ بِمَا ذَكَرَ: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ فِيهِ عَلَى تَحْصِيلِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ؛ لِأَنَّ مَنْ فِي ذِمَّتِهِ حَقٌّ مَثَلًا: إِمَّا أَنْ يَأْخُذَ بِالْبَيْعِ مَا يُؤَدِّيهِ بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُعِينَهُ أَصْدِقَاؤُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَلْتَجِئَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَهُ فِي حَظِّهِ[1]، وَالْكُلُّ مُنْتَفٍ، وَلَا مُسْتَعَانٍ إِلَّا بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ.

٤٨- الخطأ في فهم معنى الشفاعة

(... الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): التَّكْذِيبُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

قوله: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] أَيْ: وَلَا يَمْلِكُ آلِهَتُهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ، كَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزخرف:٨٦] الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] أَيْ: يَعْلَمُونَهُ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى وَعُزَيْرٌ وَأَضْرَابُهُمْ. وَأَنْتَ تَرَى النَّاسَ الْيَوْمَ عَاكِفِينَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، وَعُذْرُهُمْ عِنْدَ تَوْبِيخِهِمْ: أَنَّ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُهُمْ[2] تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

---

(١) لعل الصواب: حطه بالطاء لا بالظاء؛ لأنه هو الذي يقتضيه السياق، والله أعلم، ويكون المعنى: أي: في إسقاطه عنه.

(٢) أنت ترى اليوم العاكفين على القبور بين داع عندها ومتوسل بها وساجد إليها وناذر لها، وغير ذلك من أنواع العبادات التي هي من أصول الجاهلية الجهلاء، ومخالفة لهدي النبي ﷺ، وإذا ما أنكرت هذا ودللت على بطلانه قالوا: وهَّابي متشدد! وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٤٩- قتل أولياء الله

(... التَّاسِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): قَتْلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَقَتْلُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. إِلَى آيَاتٍ أُخَرَ فِي هَذَا الْمَعْنَى صَرَّحَتْ بِمَا لَاقَاهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- وَأَتْبَاعُهُمُ الْمُخْلِصُونَ وَدُعَاةُ الْحَقِّ وَبِمَا كَابَدُوْهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وَالجَهَلَةِ الطُّغَاةِ بِمَا تَنْهَدُّ لَهُ الصَّيَاصِي، وَتَبِيضُّ مِنْهُ النَّوَاصِي.

هَؤُلَاءِ أَكَابِرُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَعُلَمَاؤُهَا الْأَعْلَامُ قَدْ صَادَفُوا عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ مَا يَسْوَدُّ مِنْهُ وُجُوهُ الْقِرْطَاسِ، وَتَشِيبُ مِنْهُ لِمَمُ الْمِدَادِ. وَالْأَنْبِيَاءُ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ- وَأَتْبَاعُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَإِنْ كَانُوا يُبْتَلَوْنَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فَالعَاقِبَةُ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لَمَّا قَصَّ قِصَّةَ نُوحٍ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ لَمَّا أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَسُولاً إِلَى مَلِكِ الرُّومِ، فَطَلَبَ مَنْ يُخْبِرُهُ بِسِيرَتِهِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ حِينَئِذٍ أَعْدَاءَهُ، لَمْ يَكُونُوا آمَنُوا بِهِ.

فَقَالَ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟

قَالُوا: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ: يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى.

فَقَالَ: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ.[١]

فإنه كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَصْرُ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ يَوْمَ أُحُدٍ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ، ثُمَّ لَمْ يُنْصَرِ الْكُفَّارُ بَعْدَهَا حَتَّى أَظْهَرَ اللهُ تَعَالَى الإِسْلَامَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَفِي الْأَنْبِيَاءِ مَنْ قَدْ قُتِلَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَفِي أَهْلِ الْفُجُورِ مَنْ يُؤْتِيهِ اللهُ مُلْكًا وَسُلْطَانًا، ويسلطه عَلَى الْمُتَدَيِّنِينَ كَمَا سَلَّطَ بُخْت نَصَّرَ[٢] عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَمَا سَلَّطَ كُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ -أَحْيَانًا- عَلَى الْمُسْلِمِينَ[٣].

قِيلَ: أَمَّا مَنْ قُتِلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَهُمْ كَمَنْ يُقْتَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجِهَادِ شَهِيدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران:١٤٦-١٤٨]. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شَهِيدًا فِي الْقِتَالِ كَانَ حَالُهُ أَكْمَلَ مِنْ حَالِ مَنْ يَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهِ[٤]، قَالَ تَعَالَى:

---

(١) هو حديث أبي سفيان صخر بن حرب، أخرجه البخاري ومسلم، كما تقدم تخريجه في المسألة (١١).

(٢) هو بختنصر كان اسمه بالفارسية -فيما قيل- بخترشه، وكان في زمن ملك الفرس: الهراسب ابن كيوجي بن كيمنوس بن قيطاشين. انظر إلى قصته في: "تاريخ الطبري" (١/ ٣١٦-٣٢٥) (طبع دار الكتب العلمية) سنة ١٤٠٨هـ.

(٣) كما حصل في وسط غزوة أحد. انظر: "زاد المعاد" (٣/ ٢٤١). ونحوه تسليط الفرنج والتتار على المسلمين في القرن السادس والسابع. انظر تفاصيل ذلك في: "تاريخ الإسلام" للذهبي، و"البداية والنهاية" لابن كثير.

(٤) قال في "اللسان" قول العرب: مات فلان حتف أنفه أي: بلا ضرب ولا قتل، قال أبوعبيد: هو أن يموت موتًا على فراشه من غير قتل ولا غرق ولا سبع ولا غيره قال ابن الأثير: هو أن=

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[التوبة: ٥٢]. أَيْ: إِمَّا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ، وَإِمَّا الشَّهَادَةُ وَالْجَنَّةُ.

ثُمَّ إِنَّ الدِّينَ الَّذِي قَاتَلَ عَلَيْهِ الشُّهَدَاءُ يَنْتَصِرُ وَيَظْهَرُ، فَيَكُونُ لِطَائِفَتِهِ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَانَ شَهِيدًا، وَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ كَانَ مَنْصُورًا سَعِيدًا. وَهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّصْرِ؛ إِذْ كَانَ الْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَالْمَوْتُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَكْمَلُ، بِخِلَافِ مَنْ يَهْلَكُ هُوَ وَطَائِفَتُهُ فَلَا يَفُوزُ، لَا هُوَ وَلَا هُمْ بِمَطْلُوبِهِمْ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَالشُّهَدَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَاتَلُوا بِاخْتِيَارِهِمْ وَفَعَلُوا الْأَسْبَابَ الَّتِي بِهَا قُتِلُوا، كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَهُمُ اخْتَارُوا هَذَا الْمَوْتَ: إِمَّا أَنَّهُمْ قَصَدُوا الشَّهَادَةَ، وَإِمَّا أَنَّهُمْ قَصَدُوا مَا بِهِ يَصِيرُونَ شُهَدَاءَ، عَالِمِينَ بِأَنَّ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الدُّنْيَا بِانْتِصَارِ طَائِفَتِهِمْ وَبِبَقَاءِ لِسَانِ الصِّدْقِ لَهُمْ ثَنَاءً وَدُعَاءً. بِخِلَافِ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْكُفَّارِ؛ فَإِنَّهُمْ هَلَكُوا بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ هَلَاكًا لَا يَرْجُونَ مَعَهُ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ وَلَا لطائفتهم شَيْءٌ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا، بَلْ أُتْبِعُوا ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[القصص:٤٢]، وَقِيلَ فِيهِمْ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟

= يموت على فراشه كأنه سقط لأنفه فمات، والحتف: الهلاك قال: كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جراحته. اهـ بتصرف يسير مادة: (حتف).

واعلم أن من نات حتف أنفه وهو يريد الشهادة بصدق وإخلاص؛ فإن اله يبلغه منازل الشهداء، وذلك لما أخرجه مسلم (١٩٠٩)، عن سهل بن حنيف أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه».

مُنظَرِينَ ﴾[الدخان: ٢٥-٢٩]. وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ، أَيْ: أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّهُمْ مَا ضَعُفُوا وَلَا اسْتَكَانُوا لِذَلِكَ، بَلِ اسْتَغْفَرُوا مِنْ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ ظُهُورِ الْعَدُوِّ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى آتَاهُمْ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ. فَإِذَا كَانَ هَذَا قَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا الظَّنُّ بِقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ؟! فَفِيهِ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ الْفَلَاحِ.

وَظُهُورُ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَانًا هُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْمُسْلِمِينَ كَيَوْمِ أُحُدٍ[1]، فَإِنْ تَابُوا انْتَصَرُوا عَلَى الْكُفَّارِ وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ، كَمَا قَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا لِلْمُسْلِمِينَ فِي عَامَّةِ مَلَاحِمِهِمْ مَعَ الْكُفَّارِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ النُّبُوَّةِ وَأَعْلَامِهَا وَدَلَائِلِهَا؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قَامُوا بِعُهُودِهِ وَوَصَايَاهُ نَصَرَهُمُ اللهُ وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى الْمُخَالِفِينَ لَهُ، فإذا ضَيَّعُوا عُهُودَهُ ظَهَرَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَدَارُ النَّصْرِ وَالظُّهُورِ مَعَ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وُجُودًا وَعَدَمًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يُزَاحِمُ ذَلِكَ، وَدَوَرَانُ الْحُكْمِ مَعَ الْوَصْفِ وُجُودًا وَعَدَمًا مِنْ غَيْرِ مُزَاحَمَةِ وَصْفٍ آخَرَ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْمَدَارَ عِلَّةٌ لِلدَّائِرِ، وَقَوْلُنَا: (مِنْ غَيْرِ وَصْفٍ آخَرَ)، يُزِيلُ النُّقُوضَ الْوَارِدَةَ، فَهَذَا الِاسْتِقْرَاءُ والتتبع يُبَيِّنُ أَنَّ نَصْرَ اللهِ وَإِظْهَارَهُ هُوَ بِسَبَبِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ إِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ وَنَصْرَهُ وَنَصْرَ أَتْبَاعِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ السَّعَادَةَ وَلِمَنْ خَالَفَهُمُ الشَّقَاءَ، وَهَذَا يُوجِبُ الْعِلْمَ بِنُبُوَّتِهِ، وَأَنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ سَعِيدًا وَمَنْ خَالَفَهُ كَانَ شَقِيًّا، وَمِنْ هَذَا ظُهُورُ بُخْتَ نَصَّرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُوسَى؛ إِذْ كَانَ ظُهُورُ بُخْتَ نَصَّرَ إِنَّمَا كَانَ لَمَّا غَيَّرُوا عُهُودَ مُوسَى وَتَرَكُوا اتِّبَاعَهُ فَعُوقِبُوا بِذَلِكَ، وَكَانُوا -إِذْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِعُهُودِ مُوسَى- مَنْصُورِينَ مُؤَيَّدِينَ، كَمَا كَانُوا فِي زَمَنِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ

(١) كانت غزوة أحد في يوم السبت في سابع شوال سنة ثلاث للهجرة. انظر تفصيل القول فيها في: "زاد المعاد" (٣/١٩٢-٢٤٣) لا سيما منه (ص٢١٨) وما بعدها.

إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۞ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٤-٨].

فَكَانَ ظُهُورُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى عَدُوِّهِمْ تَارَةً، وَظُهُورُ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ تَارَةً، مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُوسَى ﷺ وَآيَاتِهِ. وَكَذَلِكَ ظُهُورُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى عَدُوِّهِمْ تَارَةً، وَظُهُورُ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ تَارَةً، هُوَ مِنْ دَلَائِلِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ، وَكَانَ نَصْرُ اللهِ لِمُوسَى وَقَوْمِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا جَرَى لَهُمْ مَنْ يُوشَعَ[1]

---

(١) هو كما في: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٢٧): يوشع بن نون بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. وانظر قصته في: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٢٧-٢٤٢).

ومن كراماته ما أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجلٌ ملك بضع امرأةٍ، وهو يريد أن يبني بها، ولمَّا يبن بها، ولا أحدٌ: بنى بيوتًا، ولم يرفع سقوفها، ولا أحدٌ: اشترى غنمًا، أو خلفاتٍ، وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشَّمس: إنَّك مأمورةٌ، وأنا مأمورٌ، اللهمَّ! احبسها علينا. فحبست حتَّى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت -يعني: النَّار- لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غلولاً، فليبايعني من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ، فلزقت يد رجلٍ بيده، فقال: فيكم الغلول؛ فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثةٍ بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأسٍ مثل رأس بقرةٍ من الذَّهب، فوضعوها، فجاءت النَّار فأكلتها، ثمَّ أحلَّ الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلَّها لنا».

وجاء التصريح بهذا النبي فيما أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس». قال ابن كثير: انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري. اهـ

=

وَغَيْرِهِ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُوسَى، وَكَذَلِكَ انْتِصَارُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ مَعَ خُلَفَائِهِ، مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ وَدَلَائِلِهَا، وَهَذَا بِخِلَافِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَنْتَصِرُونَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ أَحْيَانًا، فَإِنَّ أُولَئِكَ لَا يَكُونُ مُطَاعِهِمْ إِلَى نَبِيٍّ، وَلَا يُقَاتِلُونَ أَتْبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى دِينٍ، وَلَا يَطْلُبُونَ مِنْ أُولَئِكَ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، بَلْ قَدْ يُصَرِّحُونَ: بِأَنَّا إِنَّمَا نُصِرْنَا عَلَيْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ، وَأَنْ لَوِ اتَّبَعْتُمْ دِينَكُمْ لَمْ نُنْصَرْ عَلَيْكُمْ. وَأَيْضًا فَلَا عَاقِبَةَ لَهُمْ، بَلِ اللهُ يُهْلِكُ الظَّالِمَ بِالظَّالِمِ ثُمَّ يُهْلِكُ الظَّالِمِينَ جَمِيعًا، وَلَا قَتِيلُهُمْ يَطْلُبُ بِقَتْلِهِ سَعَادَةً بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَا يَخْتَارُونَ الْقَتْلَ لِيَسْعَدُوا بَعْدَ الْمَوْتِ.

فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا يُظْهِرُ الْفَرْقَ بَيْنَ انْتِصَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَبَيْنَ ظُهُورِ بَعْضِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَوْ ظُهُورِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ ظُهُورَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتَهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، هُوَ مِنْ جِنْسِ ظُهُورِهِمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ وَدَلَائِلِ رِسَالَتِهِ، لَيْسَ هُوَ كَظُهُورِ بُخْتَ نَصَّرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَظُهُورِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مُوسَى وَبَيَّنَ: أَنَّ الْكَذَّابَ -الْمُدَّعِي لِلنُّبُوَّةِ- لَا يَتِمُّ أَمْرُهُ، وَإِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُ الصَّادِقِ؛ فَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ سُلِّطُوا عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا مَعَ صِحَّةِ دِينِنَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ، كَمَا سُلِّطَ بُخْتَ نَصَّرَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ.

وَهَذَا قِيَاسٌ فَاسِدٌ، فَإِنَّ بُخْتَ نَصَّرَ لَمْ يَدَّعِ نُبُوَّةً، وَلَا قَاتَلَ عَلَى دِينٍ، وَلَا طَلَبَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَنْتَقِلُوا عَنْ شَرِيعَةِ مُوسَى إِلَى شَرِيعَتِهِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي

= قلت: هو صحيح، وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا رحمه الله (١٢٦٢)، وفي «الصحيحة» للعلامة الألباني (٢٠٢).

ظُهُورِهِ إِتْمَامٌ لِمَا ادَّعَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَدَعَا إِلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، بَلْ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُحَارِبِينَ، قُطَّاعِ الطَّرِيقِ، إِذَا ظَهَرُوا عَلَى الْقَوَافِلِ؛ بِخِلَافِ مَنِ ادَّعَى نُبُوَّةً وَدِينًا، دَعَا إِلَيْهِ وَوَعَدَ أَهْلَهُ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَوَعَّدَ مُخَالِفِيهِ بشقاوة الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ نَصَرَهُ اللهُ، وَأَظْهَرَهُ، وَأَتَمَّ دِينَهُ، وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ، وَجَعَلَ لَهُ الْعَاقِبَةَ، وَأَذَلَّ مُخَالِفِيهِ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ خَرْقِ الْعَادَاتِ الْمُقْتَرِن بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا، وذاك من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة؛ فإنه ليس دليلًا عليها، وَقَدْ تَغْرَقُ فِي الْبَحْرِ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّةِ نَبِيٍّ، بِخِلَافِ غَرْقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَإِنَّهُ كَانَ آيَةً بَيِّنَةً لِمُوسَى، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ مُوسَى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مِنْ أَنَّ الْكَذَّابَ لَا يَتِمُّ أَمْرُهُ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ حَكِيمٌ لَا يَلِيقُ بِهِ تَأْيِيدُ الْكَذَّابِ عَلَى كَذِبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُبَيِّنَ كَذِبَهُ[1].

وَلِهَذَا أَعْظَمُ الْفِتَنِ فِتْنَةُ الدَّجَّالِ الْكَذَّابِ، لَمَّا اقْتَرَنَ بِدَعْوَاهُ الْأُلُوهِيَّةَ بَعْضُ الْخَوَارِقِ كَانَ مَعَهَا مَا يَدُلُّ عَلَى كَذِبِهِ مِنْ وُجُوهٍ: مِنْهَا دَعْوَاهُ الْأُلُوهِيَّةَ، وَهُوَ أَعْوَرُ؛ وَاللهُ لَيْسَ بِأَعْوَرَ[2]، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ[3]، يَقْرَأُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ قَارِئٍ

---

(١) قوله به: (لا يليق به...) إلخ هذه العبارة أشبه بعبارات المعتزلة والمؤلف أراد أن يقول: إن الله سبحانه وتعالى لعظيم حكمته وتقديره لا يبقي الكاذب على حاله، وتظاهره الذي يغر به الخلق، بل يفضحه على رؤوس الخلق ويبين أمره، وهذا سنة الله في خلقه.

(٢) يدل عليه ما أخرجه البخاري (٣٤٣٩) ومسلم (١٦٩) (٢٧٤) عن ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال: «إن الله ليس بأعور. ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية».

(٣) يدل عليه: ما أخرجه البخاري (٧١٣١) ومسلم (٢٩٣٣) عن أنس ﷺ مرفوعًا: «وما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور. الكذاب ألا إنه أعور، وإن ربكم عزوجل ليس بأعور، مكتوب بين عينيه: ك ف ر».

وَغَيْرُ قَارِئٍ[١]، وَاللهُ تَعَالَى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ حَتَّى يَمُوتَ[٢]. وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ الثَّلَاثَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ[٣]، فَأَمَّا تَأْيِيدُ الْكَذَّابِ وَنَصْرِهِ وَإِظْهَارِ دَعْوَتِهِ دَائِمًا فَهَذَا لَمْ يَقَعْ قَطُّ، فَمَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِالْعَادَةِ وَالسُّنَّةِ فَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا بِالْحِكْمَةِ، فَحِكْمَتُهُ تُنَاقِضُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ؛ إِذِ الْحَكِيمُ لَا يَفْعَلُ هَذَا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الفتح: ٢٢-٢٣].

فَأَخْبَرَ أَنَّ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَالْإِيمَانُ الْمُسْتَلْزِمُ لِذَلِكَ يَتَضَمَّنُ طَاعَةَ اللهِ وَرَسُولِهِ. فَإِذَا نَقَصَ الْإِيمَانُ بِالْمَعَاصِي كَانَ الْأَمْرُ بِحَسَبِهِ كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر: ٤٢-٤٣].

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ، وَلَا يُوجَدُ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلٌ،

---

(١) يدل عليه: ما أخرجه مسلم (٢٩٣٤) عن حذيفة ﷺ مرفوعًا فذكر حديثًا وفيه: «مكتوب بين عينيه: كافر. يقرأه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب».

(٢) يعني: أن الله تعالى لا يمكن رؤيته لأحد في الدنيا يقظة بِعَيْنَي رَأْسِهِ، وأما الآخرة فسيرى الله تعالى يوم القيامة، ويدل على هذا أحاديث كثيرة، منها: ما أخرجه مسلم عقب رقم (٢٩٣١) (٧٣٥٦) عن بعض أصحاب رسول الله أن رسول الله ﷺ، قال يوم حذر الناس الدجال: «إنه مكتوب بين عينيه: كافر. يقرأه من كره عمله، أو يقرأه كل مؤمن»، وقال: «تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عزوجل، حتى يموت».

(٣) تقدم ذكرها.

لَا تَبْدِيلَ بِغَيْرِهَا، وَلَا تَتَحَوَّلُ، فَكَيْفَ النَّصْرُ لِلْكُفَّارِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ هَذَا عَلَى الْأُمَمِ[١] ؟

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْمُنَافِقِينَ -وَهُمُ الْكُفَّارُ فِي الْبَاطِنِ دُونَ الظَّاهِرِ- وَمَنْ فِيهِ شُعْبَةُ نِفَاقٍ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۞ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

وَالسُّنَّةُ: هِيَ الْعَادَةُ، فَهَذِهِ عَادَةُ اللهِ الْمَعْلُومَةُ، فَإِذَا نَصَرَ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وَأَتْبَاعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ إِمَّا ظَاهِرًا وَإِمَّا بَاطِنًا نَصْرًا مُسْتَقِرًّا، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ نَبِيٌّ صَادِقٌ؛ إِذْ كَانَتْ سُنَّةُ اللهِ وَعَادَتُهُ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَنْبِيَاءِ الصَّادِقِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، كَمَا أَنَّ سُنَّتَهُ تَأْيِيدُهُمْ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَهَذِهِ مِنْهَا، وَمَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وَهُوَ كَاذِبٌ فَهُوَ مِنْ أَكْفَرِ الْكُفَّارِ وَأَظْلَمِ الظَّالِمِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]. وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ اللهُ يَمْقُتُهُ، وَيُبْغِضُهُ، وَيُعَاقِبُهُ، وَلَا يَدُومُ أَمْرُهُ، بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[٢] قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ

---

(١) في (ط) الاسم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) عن أبي موسى ﷺ، لا عن أبي هريرة ﷺ.

ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وَقَالَ أَيْضًا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ[١] عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مِثْلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ تُفَيِّئُهَا الرِّيَاحُ: تُقِيمُهَا تَارَةً وَتُمِيلُهَا أُخْرَى، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ لَا تَزَالُ ثَابِتَةً عَلَى أَصْلِهَا حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً»**.

فَالْكَاذِبُ الْفَاجِرُ وَإِنْ عَظُمَتْ دَوْلَتُهُ فَلَا بُدَّ مِنْ زَوَالِهَا بِالْكُلِّيَّةِ وَبَقَاءِ ذَمِّهِ وَلِسَانَ السُّوءِ لَهُ فِي الْعَالَمِ، وَهُوَ يَظْهَرُ سَرِيعًا وَيَزُولُ سَرِيعًا، كَدَوْلَةِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَالْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ وَبَابَكَ الْخُرَّمِيِّ وَنَحْوِهِمْ.

وَأَمَّا الْأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ يُبْتَلَوْنَ كَثِيرًا؛ لِيُمَحَّصُوا بِالْبَلَاءِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا يُمَكِّنُ الْعَبْدَ إِذَا ابْتَلَاهُ وَيُظْهِرُ أَمْرَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا كَالزَّرْعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾[الفتح:٢٩] أَيْ: فِرَاخَهُ. (فَآزَرَهُ) أَيْ: قَوَّاهُ، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[الفتح: ٢٩].

وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَنِ اتَّبَعَهُمْ ضُعَفَاءُ النَّاسِ بِاعْتِبَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَسُنَّةِ اللهِ فِي أَنْبِيَاءِ اللهِ، وَأَوْلِيَائِهِ الصَّادِقِينَ، وَفِي أَعْدَاءِ اللهِ وَالْمُتَنَبِّئِينَ[٢] الْكَذَّابِينَ، مِمَّا يُوجِبُ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَبَيْنَ دَلَائِلِ النَّبِيِّ الصَّادِقِ، وَدَلَائِلِ الْمُتَنَبِّي الْكَذَّابِ، وَقَدْ ذُكِرَ ابْتِلَاءُ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ كَوْنُ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٦) ومسلم (٢٨١٠) من حديث أبي موسى بنحوه، وللحافظ ابن رجب رسالة مفردة في شرح هذا الحديث سماها: "غاية النفع في شرح حديث تمثل المؤمن بخامة الزرع" وهو مطبوع.

(٢) انظر "فتح الباري" شرح حديث (٧).

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩-١١١].

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ إِيذَاءَ الْقَائِمِينَ بِالْحَقِّ وَالنَّاصِرِيْنَ لَهُ مِنْ سُنَنِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا عَلَى ذَلِكَ[1]، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

٥٠- الإيمان بالجبت والطاغوت

(... الْخَمْسُونَ): الْإِيمَانُ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ[2].
وَتَفْضِيلُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١].

---

(١) وهكذا في عصرنا وسائر العصور، ولعل ذلك يكون إلى قيام الساعة، وذلك لحكمة أرادها الله، وهي عظيمة النفع لمن تدبر ذلك.

(٢) سيأتي تفسيرها قريبًا.

هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فِي جَمْعٍ مِنْ يَهُودَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ؛ لِيُحَالِفُوا قُرَيْشًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَنْقُضُوا الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَزَلَ كَعْبٌ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ فَأَحْسَنَ مَثْوَاهُ، وَنَزَلَتِ الْيَهُودُ فِي دُورِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: أَنْتُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ صَاحِبُ كِتَابٍ، فَلَا يُؤْمِنُ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَكْرًا مِنْكُمْ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ فَاسْجُدْ لِهَذَيْنِ الصَّنَمَيْنِ وَآمِنْ بِهِمَا، فَفَعَلَ. ثُمَّ قَالَ كَعْبٌ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، لِيَجِيءْ مِنْكُمْ ثَلَاثُونَ وَمِنَّا ثَلَاثُونَ، فَلْنُلْزِقْ[1] أَكْبَادَنَا بِالْكَعْبَةِ فَنُعَاهِدَ رَبَّ الْبَيْتِ لَنَجْهَدَنَّ عَلَى قِتَالِ مُحَمَّدٍ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ. فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِكَعْبٍ: إِنَّكَ امْرُؤٌ تَقْرَأُ الْكِتَابَ وَتَعْلَمُ، وَنَحْنُ أُمِّيُّونَ لا نَعْلَمُ، فَأَيُّنَا أَهْدَى طَرِيقًا وَأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ: نَحْنُ أَمْ مُحَمَّدٌ؟! قَالَ كَعْبٌ: اعْرِضُوا عَلَيَّ دِينَكُمْ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: نَحْنُ نَنْحَرُ لِلْحَجِيجِ الْكَوْمَاءَ[2]، وَنَسْقِيهُمُ اللَّبَنَ، وَنَقْرِي الضَّيْفَ، وَنَفُكُّ الْعَانِيَ، وَنَصِلُ الرَّحِمَ، وَنَعْمُرُ بَيْتَ رَبِّنَا وَنَطُوفُ بِهِ، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ. وَمُحَمَّدٌ فَارَقَ دِينَ آبَائِهِ، وَقَطَعَ الرَّحِمَ. وَدِينُنَا الْقَدِيمُ، وَدِينُ مُحَمَّدٍ الْحَدِيثُ، فَقَالَ كَعْبٌ: أَنْتُمْ وَاللهِ! أَهْدَى سَبِيلًا مِمَّا عَلَيْهِ مُحَمَّد. فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ الْآيَاتِ[3] ...

---

(١) أي: نلصق.

(٢) يقال: ناقة كوماء وهي: التي تكون عظيمة السنام طويلة. «اللسان» مادة: (كوم).

(٣) بنحو هذا السياق الذي ذكره المصنف مرسل. أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١٦٤-١٦٥) ومن طريقه الطبري (٧/ ١٤٣) وابن أبي حاتم في «تفسيره» بسند صحيح عن عكرمة قال: إن كعب بن الأشرف انطلق... فذكره بمعناه وأخرجه أيضًا بنحوه، الطبري (٧/ ١٤٤) عن السدي وأخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٦-٩٧٧) عن السدي عن أبي مالك بنحوه وكلها مراسيل، وقد أخرجه الطبري (٧/ ١٤٢) من طريق ابن أبي عدي عن داود، وهو ابن أبي هند، عن عكرمة عن ابن عباس فذكره بنحوه مختصرًا، وهذا سند ظاهره الصحة، لكنه قد خالف ابن أبي عدي جَمْعٌ عند الطبري في «تفسيره» وعند غيره فرووه عن عكرمة مرسلًا، لذا رجح شيخنا رحمه الله =

وَالْجِبْتُ: فِي الْأَصْلِ اسْمُ صَنَمٍ، فَاسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ غَيْرَ اللهِ[١].

وَالطَّاغُوتُ: يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ بَاطِلٍ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ غَيْرِهِ[٢].

وَمَعْنَى الْإِيمَانِ بِهِمَا: إِمَّا التَّصْدِيقُ بِأَنَّهُمَا آلِهَةٌ، وَإِشْرَاكُهُمَا بِالْعِبَادَةِ مَعَ اللهِ تَعَالَى، وَإِمَّا طَاعَتُهُمَا وَمُوَافَقَتُهُمَا عَلَى مَا هُمَا عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِمَّا الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ كَالتَّعْظِيمِ مثَلًا. وَالْمُتَبَادِرُ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ، أَيْ: إِنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ بِأُلُوهِيَّةِ هَذَيْنِ الْبَاطِلَيْنِ وَيُشْرِكُونَهُمَا فِي الْعِبَادَةِ مَعَ الْإِلَهِ الْحَقِّ وَيَسْجُدُونَ لَهُمَا.

٥١- لبس الحق بالباطل

(... الْحَادِيَةُ وَالْخَمْسُونَ): لَبْسُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَكِتْمَانِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧١]. وَفِي الْمُرَادِ أَقْوَالٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمُرَادَ تَحْرِيفُهُمُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. ثَانِيهَا: أَنَّ الْمُرَادَ إِظْهَارُهُمُ الْإِسْلَامَ وَإِبْطَانُهُمُ النِّفَاقَ. ثَالِثُهَا: أَنَّ الْمُرَادَ الْإِيمَانُ بِمُوسَى وَعِيسَى، وَالْكُفْرُ بِمُحَمَّدٍ عليه السلام. رَابِعُهَا: أَنَّ الْمُرَادَ مَا يَعْلَمُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حَقِيقَةِ رِسَالَتِهِ ﷺ وَمَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ تَكْذِيبِهِ[٣].

= إرساله في «أسباب النزول» (ص٢٧٤).

(١) قال الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٤٠) الجبت والطاغوت: اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له كائنًا ما كان ذلك المعظم، من حجر، أو إنسان، أو شيطان. اهـ

(٢) قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ٥٣): الطاغوت هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، وانظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٥٥٨).

(٣) انظر لهذه الأقوال: «روح المعاني» (٣/ ٣١٨)، و«تفسير الطبري» (٥/ ٢٩٢-٢٩٤) و(١/ ٦٠٥-٦٠٧) والذي يظهر أن ذلك عام.

٥٢- الإقرار بالحق للتوصل إلى دفعه

(... الثَّانِيَةُ وَالْخَمْسُونَ): التَّعَصُّبُ لِلْمَذْهَبِ وَالإِقْرَارُ بِالْحَقِّ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى دَفْعِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[آل عمران:٧٢-٧٤].

قَالَ الْحَسَنُ[١] وَالسُّدِّيُّ[٢]: تَوَاطَأَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَحْبَارِ يَهُودِ خَيْبَرَ وَقُرَى عَرِينٍ[٣] وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْخُلُوا فِي دِينِ مُحَمَّدٍ أَوَّلَ النَّهَارِ بِاللِّسَانِ دُونَ الِاعْتِقَادِ، وَاكْفُرُوا آخِرَ النَّهَارِ، وَقُولُوا: إِنَّا نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا، وَشَاوَرْنَا عُلَمَاءَنَا، فَوَجَدْنَا مُحَمَّدًا لَيْسَ بِذَاكَ، وَظَهَرَ لَنَا كَذِبُهُ، وَبُطْلَانُ دِينِهِ، فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ شَكَّ أَصْحَابُهُ فِي دِينِهِمْ، وَقَالُوا: إِنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَهُمْ أَعْلَمُ بِهِ، فَيَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى دِينِكُمْ[٤].

---

(١) نقله في "روح المعاني" (٣/ ٣١٨)، ولم أقف عليه مسندًا.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٤٩٦) مطولًا، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٣٧) (تحقيق حكمت) مختصرًا، وسنده إليه لا بأس به.

(٣) كذا هنا، وفي المصدرين السابقين (قرى عربية). اهـ. وهي: قرى في الحجاز معروفة. انظر: "معجم ما استعجم" (٣/ ٩٢٩-٩٣٠).

(٤) ساقه بالمعنى.

٥٣- اتخاذ النبيين أربابًا

(... الثَّالِثَةُ وَالْخَمْسُونَ): تَسْمِيَتُهُمُ اتِّبَاعَ الْإِسْلَامِ شِرْكًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ بِسَنَدِهِ[١]: حِينَ اجْتَمَعَتِ الْأَحْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ: أَتُرِيدُ -يَا مُحَمَّدُ-: أَنْ نَعْبُدَكَ كَمَا تَعْبُدُ النَّصَارَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ نَصْرَانِيٌّ يُقَالُ لَهُ الرَّئِيسُ[٢]: أَوَ ذَاكَ تُرِيدُ مِنَّا يَا مُحَمَّدُ[٣]؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أَوْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ!! مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي**» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْآيَةَ.

---

(١) كما في «تفسير ابن كثير» عند الآية (٨٠) من آل عمران حيث قال: قال ابن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأحبار من اليهود: وساقه ابن هشام في «سيرته» (١/ ٥٥٤) بدون سند، وأخرجه ابن جرير (٥/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٣) وسنده ضعيف؛ من أجل جهالة محمد بن أبي محمد.

(٢) في «السيرة» الريس ويروى: الريس، والرئيس.

(٣) في مصادر التخريج زيادة: (وإليه تدعونا).

٥٤- تحريف الكلم عن مواضعه

(... الرَّابِعَةُ وَالْخَمْسُونَ): تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَيُّ الْأَلْسِنَةِ بِالْكِتَابِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

رُوِيَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى جَمِيعًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَرَّفُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَأَلْحَقُوا بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى مَا لَيْسَ مِنْهُ[١].

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَنَّ الْمُحَرَّفَ هَلْ كَانَ يُكْتَبُ فِي التَّوْرَاةِ أَمْ لَا؟ فَذَهَبَ جَمْعٌ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ سِوَى كَلَامِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّ تَحْرِيفَ الْيَهُودِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَغْيِيرًا وَقْتَ الْقِرَاءَةِ، وَتَأْوِيلًا بَاطِلًا لِلنُّصُوصِ، وَأَمَّا أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ مَا يَرُومُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى تَعَدُّدِ نُسَخِهَا فَلَا. وَاحْتَجُّوا لِذَلِكَ بِمَا رُوِيَ: أَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ كَمَا أَنْزَلَهُمَا اللهُ تَعَالَى لَمْ يُغَيَّرْ مِنْهُمَا حَرْفٌ. وَلَكِنَّهُمْ يَضِلُّونَ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَكُتُبٍ كَانُوا يَكْتُبُونَهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَيَقُولُونَ: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ. فَأَمَّا كُتُبُ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا مَحْفُوظَةٌ لَا تُحَوَّلُ[٢]، وَبِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ

---

(١) ذكره الألولسي في "روح المعاني" (٣/ ٣٢٨)، فقال: روى الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الآية نزلت... فذكره، والضحاك لم يدرك ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرج ابن المنذر في "تفسيره" (٦٤٠) وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٦٨٩) عن وهب بن منبه قال: (إن التوراة والإنجيل كما أنزلها الله تعالى لم يغير منهما حرف، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل، وكُتُبٌ كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ويقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله وأما كُتب الله فإنها محفوظة لا تحول). وسنده حسن إلى وهب بن منبه، وتعقبه الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ٩٧) فقال: إن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل، والتحريف، والزيادة، والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية، ففيه=

يَقُولُ لِلْيَهُودِ إِلْزَامًا لَهُمْ: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الجاثية:٢٥] وَهُمْ يَمْتَنِعُونَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَوْ كَانَتْ مُغَيَّرَة إِلَى مَا يُوَافِقُ مَرَامَهُمْ مَا امْتَنَعُوا، بَلْ وَمَا كَانَ يَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى مَطْلَبِهِ الشَّرِيفِ بِالْإِبْطَالِ.

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُمْ بَدَّلُوا وَكَتَبُوا ذَلِكَ فِي نَفْسِ كِتَابِهِمْ، وَاحْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِكَثِيرٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ، وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ تَعَدُّدُ النُّسَخِ؛ لِاحْتِمَالِ التَّوَاطُؤِ، أَوْ فِعْلِ ذَلِكَ فِي الْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ، وَكَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْهُ قَوْلُ الرَّسُولِ لَهُمْ ذَلِكَ؛ لِاحْتِمَالِ عِلْمِهِ بِبَقَاءِ بَعْضٍ مَا يَفِي بِغَرَضِهِ سَالِمًا عَنِ التَّغْيِيرِ. إِمَّا لِجَهْلِهِمْ بِوَجْهِ دَلَالَتِهِ أَوْ لِصَرْفِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ عَنْ تَغْيِيرِهِ[1]، وَتَمَامُ الْكَلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْجَدِّ[2] عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَكَذَا فِي «الْجَوَابِ الصَّحِيحِ»[3] لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ سَلَكُوا مَسْلَكَ الْكِتَابِيِّينَ فِي التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَاتِّبَاعِ شَهَوَاتِهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ٤٦]. وَالْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا مُسْتَوْفًى فِي التَّفْسِيرِ.

= خطأ كبير، وزيادات كثيرة، ونقصان، ووهم فاحش، وهو من باب تفسير المعرَّب المعبر، وفهم كثير منهم بل أكثرهم، بل جميعهم فاسد، وأما إن عنى كُتُب الله التي هي كتبه من عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء. انتهى

(١) الصحيح في هذه المسألة الذي رجحه شيخ الإسلام وغيره: أن كتبهم وقع فيها التحريف عند القراءة وفي اللفظ والمعنى وهذا أيضًا هو مذهب ابن القيم. كما في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٧- ٢٩٤) وانظر «الجواب الصحيح» (٣/ ٤٩) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

(٢) يعني: «روح المعاني» وهو فيه (٣/ ٣٢٨-٣٣٠).

(٣) انظر منه (٢/ ٣٦٨) إلى آخر المجلد وكذا (٣/ ٤٩-٨٣).

٥٥- تلقيب أهل الهدى بألقاب غريبة

(... الخَامِسَةُ وَالْخَمْسُونَ): تَلْقِيبُ أَهْلِ الْهُدَى بِالصَّابِئَةِ وَالحَشَوِيَّةِ.

فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُلَقِّبُونَ مَنْ خَرَجَ عَنْ دِينِهِمْ بِالصَّابِئِ، كَمَا كَانُوا يُسَمُّونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ، كَمَا وَرَدَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ مِنْ صَحِيحِ «الْبُخَارِيِّ» «وَمُسْلِمٍ» وَغَيْرِهِمَا[1]؛ تَنْفِيرًا لِلنَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِ غَيْرِ سَبِيلِهِمْ. وَهَكَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُطْلِقُونَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ فِي بِدَعِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ أَسْمَاءً مَكْرُوهَةً لِلنَّاسِ. وَالصَّابِئَةُ: أُمَّةٌ قَدِيمَةٌ عَلَى مَذَاهِبَ مُخْتَلِفَةٍ[2] قَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا أَهْلُ الْمَقَالَاتِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْحَشَوِيَّةُ: فَهُمْ قَوْمٌ كَانُوا يَقُولُونَ: بِجَوَازِ وُرُودِ مَا لَا مَعْنَى لَهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَالْحُرُوفِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ -كَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ-، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لَمَّا وَجَدَ قَوْلَهُمْ سَاقِطًا وَكَانُوا يَجْلِسُونَ فِي حَلَقَتِهِ أَمَامَهُ: رُدُّوا هَؤُلَاءِ إِلَى حَشَا الْحَلْقَةِ. أَيْ: جَانِبِهَا. وَخُصُومُ السَّلَفِيِّينَ[3] يَرْمُونَهُمْ بِهَذَا

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٣٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٣)، وأحمد (٥/ ١٧٤)، وأطلقت على بعض أصحابه كعمر رضي الله عنه كما في البخاري (٣٨٦٤و٣٨٦٥)، وعلى أبي ذر رضي الله عنه كما في البخاري (٣٥٢٢) ومسلم (٢٤٧٤).

(٢) يدور مذهبهم على التعصب للروحانيين، وتدعي أن مذهبها الاكتساب، وانظر تفاصيل القول عنهم في: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٥-٤٤)، و«التبصير في الدين» (ص١٥٠)، و«البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» (٩٢-٩٤)، و«الرد على المنطقيين» لشيخ الإسلام (٤٥٤-٤٥٦)، و«كيد إبليس» لابن الجوزي (ص١٠٧-١١٦).

(٣) قال السمعاني في «الأنساب»: هذه النسبة إلى السلف وانتحال مذهبهم، وقال السَّفَّارِيْنِي في «لوامع الأنوار» (١/ ٢٠): المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم بإحسان فأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه بالدين.

الِاسْمِ[١]؛ تَنْفِيرًا لِلنَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِمْ وَالْأَخْذِ بِأَقْوَالِهِمْ، حَيْثُ يَقُولُونَ فِي الْمُتَشَابِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:٧] وَقَدْ أَخْطَأَتِ اسْتُهُمُ الْحُفْرَةَ، فَالسَّلَفُ لَا يَقُولُونَ بِوُرُودِ مَا لَا مَعْنَى لَهُ لَا فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، بَلْ يَقُولُونَ فِي الِاسْتِوَاءِ مَثَلًا:

(الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ، وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ). وَقَدْ أَطَالَ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِهِ[٢]، وَلَخَّصَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ "جَوَابُ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي التَّفَاضُلِ بَيْنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ"[٣].

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَذْهَبِ السَّلَفِ وَمَذْهَبِ الْحَشَوِيَّةِ، بِأَنَّ مَذْهَبَ الْحَشَوِيَّةِ وُرُودُ مَا يَتَعَذَّرُ التَّوَصُّلُ إِلَى مَعْنَاهُ الْمُرَادُ مُطْلَقًا، فَالِاسْتِوَاءُ مَثَلًا عِنْدَهُمْ: لَهُ مَعْنًى يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِهِ كُلُّ مَنْ يَعْرِفُ الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ؛ لِأَنَّهُ خِلَافُ مَا يَقْتَضِيهِ دَلِيلُ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ، وَمَعْنًى آخَرُ يَلِيقُ بِهِ تَعَالَى لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ عَزَّوَجَلَّ، وَكَيْفَ يَكُونُ مَذْهَبُ السَّلَفِ هُوَ مَذْهَبُ الْحَشَوِيَّةِ وَقَدْ رَأَى الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَكَابِرِ السَّلَفِ سُقُوطَ قَوْلِ الْحَشَوِيَّةِ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَقْعُدَ قَائِلُهُ تُجَاهَهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ رَمَوْا أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ بِمِثْلِ

---

(١) ذاك قديمًا، وأما اليوم فيرمونهم بالتشدد والتطرف والتقوقع، وما في ذلك من النبز الذي سيحاسبون به يوم يقوم الأشهاد، وهو كذب مفضوح، وبهتانٌ ظاهر وعند الله تجتمع الخصوم، والموعد الله.

(٢) مثل: "درء تعارض العقل والنقل" و"التدمرية" و"الحموية" وغيرها كثير.

(٣) وهو مطبوع في المطبعة السلفية.

هَذَا اللَّقَبِ الْخَبِيثِ. قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُاللهِ بْنُ قُتَيْبَةَ[١] فِي «تَأْوِيلِ مُخْتَلَفِ الْأَحَادِيثِ»[٢]: إِنَّ أَصْحَابَ الْبِدَعِ سَمُّوا أَهْلَ الْحَدِيثِ بِالْحَشَوِيَّةِ، وَالنَّابِتَةِ، وَالْمُجْبِرَةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ، وَسَمَّوْهُمُ الْغُثَاء، وَهَذِهِ كُلُّهَا أَنْبَازٌ[٣] لَمْ يَأْتِ بِهَا خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا أَتَى فِي الْقَدَرِيَّةِ[٤]: «**أَنَّهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوا جَنَائِزَهُمْ**»[٥]

وَفِي الرَّافِضَةِ[٦]: «**يَكُونُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُسَمَّوْنَ الرَّافِضَةَ، يَرْفُضُونَ**

---

(١) هو عبدالله بن محمد بن قتيبة الدِّيْنَوَرِيُّ صاحب التصانيف القيمة المولود سنة (٢١٣) المتوفى سنة (٢٧٦). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٩٦).

(٢) (صـ٨٦) منه.

(٣) جمع نبز والمراد ألقاب.

(٤) القدرية: هم الخائضون في علم الله تعالى، وكتابته، ومشيئته، وتقديره وخلقه بغير علم، وبخلاف مقتضى النصوص، وفهم السلف، وهم أقسام:

١- القدرية النفاة الذين أنكروا القدر، أو بعضه مثل: المعبدية والغيلانية، والمعتزلة.

٢- الذين زعموا أن الإنسان لا اختيار له البتة، وهم: الجبرية، والجهمية.

٣- الذين خاضوا في مسألة الكسب والاستطاعة، بخلاف ما عليه السلف، وذلك مثل: الأشاعرة.

٤- المعترضة والمشككة في القدر، وذلك مثل الشيعة والمعتزلة وغيرهم. انظر تفصيل القول عنهم في: «شفاء العليل» (١/ ١٨ وما بعدها)، وجميع هذا الكتاب في بيان بطلان قول القدرية وإثبات القدر على المنهج الحق، وانظر أيضًا إلى: «القدرية والمرجئة» للدكتور: ناصر العقل.

(٥) صحيح لغيره. أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٣٨)و(٣٣٩) وأبو داود (٤٦٩١) من حديث ابن عمر وله شواهد عند ابن أبي عاصم وغيره، منها: عن أبي هريرة، وجابر، وحذيفة رضي الله عنهم صححه العلامة الألباني بمجموع هذه الطرق والشواهد، وهو كما قال رحمه الله

(٦) قال الحافظ في «هدي الساري» (صـ٦٤٦): التشيع: محبة علي وتقديمه على الصحابة، فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه، ويطلق عليه رافضي، فإن انضاف إلى ذلك السبّ، أو =

الْإِسْلَامَ، وَيَلْفِظُوْنَهُ، فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُونَ»[١].

وَفِي الْمُرْجِئَةِ[٢]: « صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَا تَنَالُهُمْ شَفَاعَتِي لُعِنُوا عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا: الْمُرْجِئَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ»[٣].

= التصريح بالبغض، فغال في الرفض، وإن اعتقد الرجعة، فأشد في الغلو. اهـ

قلت: وهم أكذب الطوائف وأضرهم على الإسلام، بالاتفاق بين أهل الحق، وانظر لبيان تأسيسهم وعقائدهم كتابي إلى: "توضيح النبأ عن مؤسس الشيعة عبدالله بن سبأ"، وكتاب "أصول مذاهب الشيعة" للدكتور ناصر القفاري.

(١) له طرق لا تخلو من ضعف. أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (٩٧٩) والآجري في "الشريعة" (٢٠٠٨) وابن بشران في "الامالي" (٥٠١و٥٥٢) من طرق عن علي رضي الله عنه، وجاء عن فاطمة رضي الله عنها عند الآجري (٢٠٠٥) والخطيب في "تاريخه" (١٢/ ٣٨٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عند الآجري (٢٠٠٤) وكلها لا تخلو من ضعف في أسانيدها، وأخرجه الهادي ذاك الشيعي الغالي - في كتابه الأحكام (١/ ٤٥٥) بسنده عن علي، قال ابن الوزير في "إيثار الحق على الخلق" (صـ٣٨٢): لا أعلم في الأحكام إسنادًا متصلًا مسلسلًا بأهل البيت سواه. اهـ قلت ويكفي في ضعفه رواية الهادي له؛ فإن مثله غير مأمون على شرع الله، والله أعلم. وانظر كتابي: "توضيح النبإ" (صـ٢٦) و"العلل المتناهية" (١/ ١٥٧-١٦٢).

(٢) المرجئة على أصناف، قال البغدادي في "الفرق بين الفرق" (صـ٢): صنف منهم: قالوا بالإرجاء في الإيمان، يعني: أن الإيمان قول بلا عمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وبالقدر على مذهب القدرية، وصنف منهم: قالوا بالإرجاء في الإيمان، وصنف منهم: خالصة في الإرجاء من غير قدر. اهـ بتصرف وانظر: "مقالات الإسلاميين" (صـ٢١٣) و"مجموع الفتاوى" (٧/ ٦٦٦و١٣/ ٤١) و"المرجئة" للدكتور عبد العزيز اللاجم.

(٣) الحديث ضعيف. ولفق لفظه من لفظين الأول: حديث: « **صنفان من أمتي لا تنالها شفاعتي: المرجئة والقدرية**» وهذا حديث ضعيف، أخرجه الطبري في "تهذيب الآثار" (٩٧٥) من حديث حذيفة وأنس رضي الله عنه، وفيه من لم نقف له على ترجمة، والحسن لم يدرك حذيفة رضي الله عنه، وجاء من وجه أخر عن أنس رضي الله عنه عند ابن الجوزي في "العلل المتناهية" (١/ ١٥٦) وقال: لا يصح.

والثاني: « **لعن المرجئة والقدرية على لسان سبعين نبيًا أنا آخرهم**». أخرجه الآجري في=

وَفِي الْخَوَارِجِ[١]: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[٢] و«كِلابُ أَهْلِ النَّارِ»[٣] هَذِهِ أَسْمَاءٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتِلْكَ أَسْمَاءٌ مَصْنُوعَةٌ. انْتَهَى.

وَفِي «الْغَنِيَّةِ»[٤]: أَنَّ الْبَاطِنِيَّةَ[٥] تُسَمِّي أَهْلَ الْحَدِيثِ حَشَوِيَّةً لِقَوْلِهِمْ بِالْأَخْبَارِ

= «الشريعة» (١٤٨)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٦١)، وغيرهم قال الذهبي في «السير» (١١/ ٤١٨): منكر.

قلت: في سنده سويد بن سعيد، ضعيف الحديث. وانظر إلى: «ظلال الجنة» (١/ ١٤٣)، وجاء عن أبي أمامة رضي الله عنه عند الطبري في «تهذيب الآثار» (٩٧٤) وفي سنده زيد بن أبي موسى، قال أبو حاتم: لا أعرفه، وجاء عن معاذ رضي الله عنه عند ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٢٥و٩٥٢) والطبراني في «معجمه» قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٠٤)، فيه بقية بن الوليد، وهو لين، ويزيد بن حصين لا أعرفه. اهـ قلت: بل بقية ثقة، يدلس تدليس التسوية، وجاء عن علي رضي الله عنه عند ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١٤٩-١٥٠) قال ابن الجوزي: لا يصح؛ فإن الحارث كذاب.

(١) الخوارج فرقة ضالة منحرفة حذر منها النبي ﷺ، وكان وقت خروجها سنة (٣٥) للهجرة. انظر الكلام عنها في «الفرق بين الفرق» و«مقالات الإسلاميين»، و«الملل والنحل»، وكتاب «الخوارج» لناصر العقل.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٦٩٣٤) ومسلم (١٠٦٨)، عن سهل بن حُنَيْفٍ رضي الله عنه، وجاء عن غيرهما.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٠و٢٥٣و٢٦٩)من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وهو صحيح، وصححه شيخنا في «الدلائل» (صـ٥٠١) وجاء عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه أخرجه عبدالله ابن أحمد في «السنة»، وهو صحيح لغيره، وانظر ما جاء في ذم الخوارج في كتاب شيخنا الإمام مقبل الوادعي رحمه الله «الصحيح المسند من دلائل النبوة» (صـ٤٨٩- صـ٥٠٤).

(٤) لعبد القادر الجيلاني (١/ ٨٥).

(٥) هي إحدى الفرق الضالة الخارجة عن الاسلام، حتى قال بعض أهل العلم: إنهم أكفر من اليهود والنصارى. وانظر: «الفرق بين الفرق» بوب فيه (صـ٢٨١): ذكر الباطنية وبيان خروجهم =

وَتَعَلُّقِهِمْ بِالْآثَارِ». انْتَهَى. وَفِي كِتَابِ «حُجَّةُ اللهِ الْبَالِغَةُ»[(١)]: وَاسْتَطَالَ هَؤُلَاءِ الْخَائِضُونَ عَلَى مَعْشَرِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَسَمَّوْهُمْ مُجَسِّمَةً وَمُشَبِّهَةً وَقَالُوا: هُمُ الْمُتَسَتِّرُونَ بِالبَلْكَفَةِ[(٢)]، وَقَدْ وَضَحَ لَدَيَّ وُضُوحًا بَيِّنًا أَنَّ اسْتِطَالَتَهُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَأَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي رِوَايَتِهِمْ رِوَايَةً وَدِرَايَةً، وخاطئون فِي طَعْنِهِمْ أَئِمَّةَ الْهُدَى. انْتَهَى.

وَقَدْ قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «كافيته الشَّافِيَةِ»[(٣)]: فَصْلٌ فِي تَلْقِيبِهِمْ أَهْلَ السُّنَّةِ بِالْحَشَوِيَّةِ، وَيُقَالُ: مَنْ أَوْلَى بِالْوَصْفِ الْمَذْمُومِ فِي هَذَا اللَّقَبِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ؟ وَذَكَرَ أَوَّلَ مَنْ لَقَّبَ بِهِ أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اقْتَدَى ... بِالْوَحْيِ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ
حَشْوِيَّةٌ يَعْنُونَ حَشْوًا فِي الوُجُو ... دِ وَفَضْلَةً فِي أُمَّةِ الْإِنْسَانِ
وَيَظُنُّ جَاهِلُهُمْ بِأَنَّهُمْ حَشَوْا ... رَبَّ الْعِبَادِ بِدَاخِلِ الْأَكْوَانِ

= عن جميع فرق الإسلام. وانظر: «التبصير في الدين» (ص٨٣).

(١) هي لشاه ولي الله الدهلوي. انظر إلى كلامه هذا فيها: (١/ ٦٤).

(٢) يعني قول أهل السنة: (تثبت الصفات لله تعالى بلا كيف). قال الزمخشري الضال عن شرع الله وسنة نبيه ساخرًا من أهل السنة:

لجماعة سموا هواهم سنة ... لجماعة حمر لعمري موكفه
قد شبهوه بخلقه فتخوفوا ... شنع الورى وتستروا بالبلكفه

فرد عليه بعض أهل السنة، فقال:

هل نحن من أهل الهوى أم أنتم ... ومن الذي منا حمير موكفه
اعكس تصب فالوصف فيكم ظاهر ... كالشمس فارجع عن مقال
أترى المسيح أتى بجهل ما أتى ... وأتى شيوخك ما أتوا عن
نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى ... فهوى الهوى بك في المهاوي

(٣) «الكافية الشافية» (١/ ٣٣٢-٣٣٤) مع شرح الهراس رَحِمَهُ اللهُ.

إِذْ قَوْلُهُمْ فَوْقَ الْعِبَادِ وَفِي السَّمَاءِ ... الرَّبُّ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ

ظَنَّ الْحَمِيرُ بِأَنَّ (فِي) لِلظَّرْفِ وَالْـ ... رَحْمَنُ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكَانِ

وَاللهِ لَمْ يُسْمَعْ بِذَا مِنْ فِرْقَةٍ ... قَالَتْهُ فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ

لَا تَبْهَتُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ بِهِ فَمَا ... ذَا قَوْلُهُمْ تَبًّا لِذِي الْبُهْتَانِ

بَلْ قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ... فِي كَفِّ خَالِقِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ مُمْسِـ ... ـكِهَا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

أترونه الْمَحْصُور بَعْدُ، أَمِ السما؟ ... يَا قَوْمَنَا ارْتَدِعُوا عَنِ الْعُدْوَانِ

كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ وَذَا حَشْوِيَّةٌ ... صَرْفٌ بِلَا جَحْدٍ وَلَا كِتْمَانِ

تَدْرُونَ مَنْ سَمَّتْ شُيُوخُكُمْ ... بِهَذَا الِاسْمِ فِي الْمَاضِي مِنَ الْأَزْمَانِ؟

سَمَّى بِهِ عَمْرٌو لِعَبْدِاللهِ[1] ذَا ... كَ ابْنُ الْخَلِيفَةِ طَارِدُ الشَّيْطَانِ

فَوَرِثْتُمُ عَمْرًا كَمَا وَرِثُوا لِعَبْـ ... ـدِ اللهِ أَنَّى يَسْتَوِي الإِرْثَانِ

تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَى بِهَذَا الِاسْمِ ... وَهُوَ مُنَاسِبٌ أَحْوَالَهُ بِوِزَانِ؟

مَنْ قَدْ حَشَى الْأَوْرَاقَ وَالْأَذْهَانَ مِنْ ... بِدَعٍ تُخَالِفُ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

هَذَا هُوَ الْحَشْوِيُّ، لَا أَهْلُ الْحَدِيثِ ... أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

وَرَدُوا عَذَابَ مَنَاهِلِ السُّنَنِ الَّتِي ... لَيْسَتْ زُبَالَةَ هَذِهِ الْأَذْهَانِ

وَوَرَدْتُمُ الْقَلُّوطَ[2] مَجْرَى كُلِّ ذِي الْـ ... أَوْسَاخِ وَالْأَقْذَارِ وَالْأَنْتَانِ

---

(١) يشير إلى ما ذكر أن عمرو بن عبيد أول من أطلق لفظ (الحشوية) أطلق ذلك على عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وذكر ذلك شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (٢/ ٥٢٠).

(٢) قال ابن عيسى في «شرحه للكافية الشافية» (٢/ ٨٦): القلوط بفتح القاف وتشديد اللام وبالطاء المهملة، هو: نهر بدمشق الشام، يحمل أقذار البلد، وأوساخه، وأنتانه، ويسمى في هذا الوقت قليطًا بالتصغير. اهـ.

وَكَسِلْتُمُ أَنْ تَصْعَدُوا لِلْوِرْدِ مِنْ ... أَثَرِ الشَّرَائِعِ خَيْبَةَ الكَسْلَانِ

وَحَاصِلُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَنَّ أَعْدَاءَ الْحَقِّ وَخُصُومُ السُّنَّةِ وَأَضْدَادَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُلَقِّبُونَ سَلَفَ الأُمَةِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِلَقَبِ الْحَشَوِيَّةِ.

فَالخَوَاصُّ مِنْهُمْ يَقْصِدُونَ بِهَذَا الِاسْمِ أَنَّ الْمُسَمَّى بِهِ حَشْوٌ فِي الْوُجُودِ وَفَضْلَةٌ فِي النَّاسِ لَا يَعْبَأُ بِهِمْ وَلَا يُقَامُ لَهُمْ وَزْنٌ؛ إِذْ لَمْ يَتَّبِعُوا آرَاءَهُمُ الكَاسِدَةَ وَأَفْكَارَهُمُ الفَاسِدَةَ[1].

وَأَمَّا الْعَوَامُّ مِنْهُمْ فَيَظُنُّونَ أَنَّ تَسْمِيَةَ السَّلَفِ بِالْحَشْوِيَّةِ لِقَوْلِهِمْ بِالْفَوْقِيَّةِ وَكَوْنِ الْإِلَهِ فِي السَّمَاءِ، بِمَعْنَى أَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا -وَحَاشَاهُمْ- أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَشْو هَذَا الْوُجُودِ وَأَنَّهُ دَاخِلَ الْكَوْنِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَهَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ عَلَى أَهْلِ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ. وَأَعْدَاءُ الْحَقِّ فِي عَصْرِنَا هَذَا، عَلَى هَذَا الْمَسْلَكِ الْجَاهِلِيِّ، فَتَرَاهُمْ يَرْمُونَ كُلَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِكُلِّ لَقَبٍ مَذْمُومٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ[2]، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ!

---

(١) وانظر إلى رد شيخ الإسلام على إطلاق هذا اللفظ على أهل السنة، في «منهاج السنة» (٢/ ٥٢٠-٥٢٢).

(٢) وفي عصرنا هذا يطلقون على أهل السنة عدة ألقاب، من ذلك قولهم: بأن أهل السنة متشددون أو متطرفون ومتقوقعون ومحبوسون بين أربعة جدران، يعني: جدران المسجد وأهل مسائل الحيض والنفاس، وغير ذلك وكل ذلك لا يزيد السنة بحمد الله إلا انتصارًا، وقوة، وصمودًا، في وجوه أهل الباطل، وانظر كتاب الشيخ عبد العزيز البرعي: «قراع الأسنه في نفي التطرف والشذوذ عن أهل السنه»، وشرح الفوزان على «مسائل الجاهلية» (صـ١٨٨).

٥٦- التكذيب بالحق

(... السَّادِسَةُ وَالْخَمْسُونَ): افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ، وَالتَّكْذِيبُ بِالْحَقِّ.

وَشَوَاهِدُ[١] هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ[٢]، وَهَذَا دَأْبُ الْمُخَالِفِينَ لِلدِّينِ الْمُبِينِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: يَدَّعُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ اللهَ أَمَرَهُمْ بِالتَّمَسُّكِ بِهِ.

وَأَنَّ الدِّينَ الْمُبِينَ لَيْسَ بِحَقٍّ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِتَكْذِيبِهِ. كُلُّ ذَلِكَ لِاتِّبَاعِ أَسْلَافِهِمْ، لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الدَّلِيلِ. وَهَكَذَا أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ يَعْتَقِدُونَ بِدَعَهُمُ الْحَقَّ وَأَنَّ اللهَ أَمَرَهُمْ بِهَا، وَأَنَّ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ مُفْتَرًى لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ.

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا لِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

٥٧- الافتراء على المؤمنين

(... السَّابِعَةُ وَالْخَمْسُونَ): رَمْيُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَلَبِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]. هَذَا الْكَلَامُ مَسُوقٌ لِبَيَانِ أَنَّ مُوسَى عليه السلام أَلْقَمَهُمُ الْحَجَرَ، فَانْقَطَعُوا عَنِ الْإِتْيَانِ بِكَلَامٍ لَهُ تَعَلُّقٌ بِكَلَامِهِ عليه السلام فَضْلًا عَنِ الْجَوَابِ الصَّحِيحِ، وَاضْطَرُّوا إِلَى التَّشَبُّثِ بِذَيْلِ التَّقْلِيدِ، الَّذِي هُوَ دَأْبُ كُلِّ عَاجِزٍ مَحْجُوجٍ[٣]،

---

(١) في (ط): شاهد.

(٢) انظر ذلك في "شرحي على مسائل الجاهلية" تحت المسألة (٦٠)، وشرح السعيد (٥٥٣/٠٢- ٥٥٩)، وشرح العلامة الفوزان (ص١٩٠- ١٩٢).

(٣) أي: ببراهين الحق الواضحة، وأدلته القاطعة من الكتاب والسنة.

وديدن كُلِّ لَجُوجٍ[1]. عَلَى أَنَّهُ اسْتِئْنَافٌ وَقَعَ جَوَابًا عَمَّا قَبْلَهُ مِنْ كَلَامِهِ عليه السلام عَلَى طَرِيقَةِ: قَالَ مُوسَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا قَالُوا لِمُوسَى عليه السلام حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ؟ فَقِيلَ: قَالُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْمُحَاجَّةِ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[يونس:٧٨] أَي: الْمُلْكُ، كَمَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ[2]، وَعَنِ الزَّجَّاجِ[3]، أَنَّهُ إِنَّمَا سَمَّى الْمُلْكَ كِبْرِيَاءَ؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ مَا يُطْلَبُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا؛ فَكُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى الحَقِّ رَمَاهُ مَنْ كَانَ عَلَى المَسْلَكِ الجَاهِلِيِّ أَنَّ قَصْدَهُ مِنَ الدَّعْوَةِ طَلَبُ الرِّيَاسَةِ وَالجَاهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ وَمَا قَامَ عَلَيْهِ مِنَ البَرَاهِيْنِ.

٥٨- رمي المؤمنين بالفساد في الأرض

(... الثَّامِنَةُ وَالْخَمْسُونَ): رَمْيُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

شَاهِدُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ[4]، حَاصِلُهَا أَنَّ الْمُخَالِفِينَ لَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ. انْظُرْ إِلَى قَوْلِهِمْ: فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَيْفَ ادَّعَوا أَنَّهُمْ هُمْ مُصْلِحُونَ، وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٢].

وَهَكَذَا مَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَةِ أُولَئِكَ مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَلُّوا غَيَّهُمْ وَتَمَكَّنَتْ بِدَعُهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ:

---

(١) أي: كل مُتمادٍ عن الحق مصرٌّ على خلافه.

(٢) صحيح عن مجاهد. أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٦٩١) إلى: ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٩).

(٤) انظر شرحي عند المسألة (٦٣)، و«شرح السعيد» (٢/ ٥٦٦ وما بعدها)، وشرح العلامة الفوزان (صـ١٩٦-٢٠٠).

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

نَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَأَقْدَامَنَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

٥٩- رمي المؤمنين بتبديل الدين

(... التَّاسِعَةُ وَالْخَمْسُونَ): رَمْيُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَبْدِيلِ الدِّينِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. اعْتَقَدُوا أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ، وَمَنْ أَرَادَ تَحْوِيْلَهُمْ عَنِ اعْتِقَادِهِمُ الكَاسِدِ وَصَرْفِهِمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْغَيِّ فَقَدْ أَرَادَ إِخْرَاجَهُمْ مِنَ الدِّينِ وإفسادًا فِي الأَرْضِ، وَهَكَذَا دَيْدَنُ أَعْدَاءِ الْحَقِّ فِي كُلِّ عَصْرٍ[1].

٦٠- اتهام أهل الحق بالفساد في الأرض

(... السِّتُّونَ): كَوْنُهُمْ إِذَا غُلِبُوا بِالْحُجَّةِ فَزِعُوا إِلَى السَّيْفِ وَالشَّكْوَى إِلَى الْمُلُوكِ وَدَعْوَى احْتِقَارِ السُّلْطَانِ وَتَحْوِيلِ الرَّعِيَّةِ عَنْ دِينِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فَانْظُرْ إِلَى شَكْوَى آلِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِلَيْهِ، وَتَحْرِيْشِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى مُقَاتَلَةِ مُوسَى عليه السلام وَتَهْيِيْجِهِ، وَمَا ذَكَرَ فِي آخِرِ الْآيَةِ مِنِ احْتِقَارِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ.

---

(١) من ذلك ما أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢)، عن أم سلمة في ذكر حديث الهجرة إلى الحبشة، وفيه قول عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص للبطارقة: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاء دين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم... الحديث حسنه شيخنا في «الصحيح المسند» (١٦٥١).

٦١- تناقض مذهبهم لما تركوا الحق

(... الْحَادِيَةُ وَالسِّتُّونَ): تَنَاقُضُ مَذْهَبِهِمْ لَمَّا تَرَكُوا الْحَقَّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ * بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[ق:٤-٥]. فَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ ... إلخ [ق:٥] اضْطِرَابٌ أُتْبِعَ الْإِضْرَاب[1] الْأَوَّل لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ جَاءُوا بِمَا هُوَ أَفْظَعُ مِنْ تَعَجُّبِهِمْ وَهُوَ التَّكْذِيبُ بِالْحَقِّ، الَّذِي هُوَ النُّبُوَّةُ الثَّابِتَةُ بِالْمُعْجِزَاتِ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ وَلَا تَدَبُّرٍ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[ق:٥] مُضْطَرِب، وَذَلِكَ بِسَبَبِ نَفْيِهِمُ النُّبُوَّةَ عَنِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ تَارَةً، وَزَعْمِهِمْ أَنَّ اللَّائِقَ بِهَا أَهْلُ الْجَاهِ وَالْمَالِ كَمَا يُنْبِئُ عَنْهُ قَوْلُهُمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:٣١] تَارَةً أُخْرَى.

وَزَعْمِهِمْ أَنَّ النُّبُوَّةَ سِحْرٌ مَرَّةً، وَأَنَّهَا كَهَانَةٌ أُخْرَى، حَيْثُ قَالُوا فِي النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً سَاحِرٌ[2]، وَمَرَّةً كَاهِنٌ[3].

أَوْ هُوَ اخْتِلَافُ حَالِهِمْ مَا بَيْنَ تَعَجُّبٍ مِنَ الْبَعْثِ وَاسْتِبْعَادٍ لَهُ، وَتَكْذِيبٍ وَتَرَدُّدٍ فِيهِ، أَوْ قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ: هُوَ شِعْرٌ تَارَةً، وَهُوَ سِحْرٌ أُخْرَى، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[الذاريات: ٧-١١]. الْحُبُكُ جَمْعُ حَبِيكَة كَطَرِيقَةٍ أَوْ حِبَاك كَمِثَال وَمَثَل، وَالْمُرَادُ بِهَا إِمَّا الطُّرُقُ الْمَحْسُوسَةُ الَّتِي تَسِيرُ فِيهَا الْكَوَاكِبُ، أَوِ

---

(١) في (ط دار السلام): (اضطراب اتبع الاضطراب).

(٢) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر:٢٤-٢٥].

(٣) ورد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الحاقة:٤١-٤٢].

الْمَعْقُولَةُ الَّتِي تُدْرَكُ بِالْبَصِيرَةِ، وَهِيَ مَا يَدُلُّ عَلَى وِحْدَةِ الصَّانِعِ[1] وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ إِذَا تَأَمَّلَهَا النَّاظِرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾[الذاريات:٨] أَيْ: مُتَخَالِفٍ وَمُتَنَاقِضٍ فِي أَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حَيْثُ تَقُولُونَ: إِنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَتَقُولُونَ: بِصِحَّةِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مَعَهُ سُبْحَانَهُ! وَفِي أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ فَتَقُولُونَ تَارَةً: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَأُخْرَى: إِنَّهُ سَاحِرٌ. وَلَا يَكُونُ السَّاحِرُ إِلَّا عَاقِلًا. وَفِي أَمْرِ الْحَشْرِ فَتَقُولُونَ تَارَةً: لَا حَشْرَ وَلَا حَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ أَصْلًا، وَتَزْعُمُونَ أُخْرَى أَنَّ أَصْنَامَكُمْ شُفَعَاؤُكُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَخَالِفَةِ فِيمَا كُلِّفُوا بِالْإِيمَانِ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[الذاريات:٩] أَيْ: يُصْرَفُ عَنِ الْإِيمَانِ بِمَا كُلِّفُوا الْإِيمَانَ بِهِ. ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾[الذاريات:١٠] أَيِ: الْكَاذِبُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[الذاريات:١١] الْغَمْرَةُ: الْجَهْلُ الْعَظِيمُ يَغْمُرُهُمْ وَيَشْمَلُهُمْ شُمُولَ الْمَاءِ الْغَامِرِ لِمَا فِيهِ. وَالسَّهْوُ: الْغَفْلَةُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام:١٥٩].

هَذِهِ الْآيَةُ اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ أَحْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ إِثْرَ بَيَانِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ بِنَاءً عَلَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[2] وَقَتَادَةَ[3] أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَيْ:

---

(١) لم يثبت اسمًا لله تعالى.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٠)، والطبري (١٠/ ٣٢) من طريق العوفيين، وهي سلسلة معروفة بالضعف، انظر كتابي: "التيسير" (ص٧٥-٧٦).

(٣) صحيح عن قتادة، لكن ليس فيه ذكر سبب النزول، وإنما فسر قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾[الأنعام:١٥٩] بأنهم اليهود والنصارى، والأثر أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره"=

بَدَّدُوا دِينَهُمْ وَبَعَّضُوهُ، فَتَمَسَّكَ بِكُلِّ بَعْضٍ مِنْهُ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أَيْ: فِرَقًا تُشَايِعُ كُلُّ فِرْقَةٍ إِمَامًا وَتَتْبَعُهُ، أَيْ: تُقَوِّيهِ، وتُظْهِرُ أَمْرَهُ.

أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهُمْ فِي الْهَاوِيَةِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فِي الْهَاوِيَةِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهُمْ فِي الْهَاوِيَةِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[1] وَاسْتِثْنَاءُ الْوَاحِدَةِ مِنْ فِرَقِ كُلٍّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ إِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْعَصْرِ الْمَاضِي قَبْلَ النَّسْخِ، وَأَمَّا بَعْدَهُ فَالْكُلُّ فِي الْهَاوِيَةِ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَسْبَابُ دُخُولِهِمْ.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أَيْ: مِنَ السُّؤَالِ عَنْهُمْ وَالْبَحْثِ عَنْ تَفَرُّقِهِمْ، أَوْ مِنْ عِقَابِهِمْ، أَوْ أَنْتَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَعْلِيلٌ لِلنَّفْيِ الْمَذْكُورِ، أَيْ: هُوَ يَتَوَلَّى وَحْدَهُ أَمْرَهُمْ أُولَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ وَيُدَبِّرُهُ حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: الْمُفَرِّقُونَ أَهْلُ الْبِدَعِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. فَقَدْ أَخْرَجَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَالطَّبَرَانِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ﴾ ... إلخ هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ[2]، فَيَكُونُ الْكَلَامُ حِينَئِذٍ اسْتِئْنَافًا لِبَيَانِ حَالِ الْمُبْتَدِعِينَ إِثْرَ بَيَانِ حَالِ

= (١/ ٢٢٢) ومن طريقه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٠) وأخرجه أيضًا الطبري (١٠/ ٣١).

(١) حديث صحيح لغيره. تقدم تحت المسألة رقم (٢٥)، ولفظة (الهاوية) في المصادر المشار إليها «النار» وكأن المؤلف ساقه بالمعنى.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٣٨-٢٣٩) قال ابن كثير في «تفسيره»: لا يصح فإن عَبَّاد بن كثير متروك، ولم يختلف ولكنه وهم في رفعه، قلت: وفيه ليث بن أبي سُلَيم وهو ضعيف أيضًا، لكن قد أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦٤) عن أبي هريرة مرفوعًا باللفظ الذي ذكره المؤلف=

الْمُشْرِكِينَ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْهُمْ بِبَعِيدٍ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ سَوَاءٌ كَانُوا أُمِّيِّينَ أَوْ كِتَابِيِّيْنَ قَدْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَتَغَايَرُوْا فِي الِاعْتِقَادِ، فَكَانَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ كُلُّ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ يَدِينُونَ لَهُ، وَلَهُمْ شَرَائِعُ مُخْتَلِفَةٌ فِي عِبَادَتِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ كَوْكَبًا. وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ... وَمِنْهُمْ...

وَكَذَلِكَ الْكِتَابِيُّونَ عَلَى مَا بَيَّنَّا؛ فالافتراق نَاشِئٌ عَنِ الْجَهْلِ، وَإِلَّا فَالشَّرِيعَةُ الْحَقَّةُ فِي كُلِّ زَمَانٍ لَا تَعَدُّدَ فِيهَا وَلَا اخْتِلَافَ، وَلِذَلِكَ تَرَى الْقُرْآنَ يُوَحِّدُ الْحَقَّ وَيُعَدِّدُ الْبَاطِلَ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فَانْظُرْ كَيْفَ أَفْرَدَ النُّورَ الَّذِي هُوَ الْحَقُّ، وَجَمَعَ الظُّلُمَاتِ الَّتِي هِيَ الْبَاطِلُ وَالزَّيْغُ، فَتَفْرِقَةُ الآرَاءِ وَالِاخْتِلَافُ فِي الِاعْتِقَادِ مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْبَاطِلِ، وَالِاتِّفَاقُ عَلَى الْعَقِيدَةِ الْحَقَّةِ هُوَ مِنْ دَأْبِ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ وَالْمُتَمَسِّكِيْنَ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى.

= وجميع رجاله ثقات، غير معلل بن نفيل الحراني أبي أحمد النهدي، ذكره ابن حبان في «الثقات» (٩/ ٢٠١) وقال: حدثنا عنه الحسن بن محمد بن أبي بشر مات سنة (٢٣٩). قلت: وذكر الذهبي في «تاريخ الإسلام» (وفيات ٢٣١-٢٤٠) (ص ٣٦٥): أنه روى عنه أبو عروبة وأبو عقيل أنس بن السلم. اهـ قلت: يضاف إليهم أحمد بن علي بن مسلم الأبار، وهو ثقة إمام، وهو راوي هذا الحديث عنه. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣): رجاله رجال الصحيح غير معلل بن نفيل وهو ثقة. اهـ وعلى ما سبق فظاهر سنده يصلح للاحتجاج لكنه معل بالوقف كما أشار إليه ابن كثير والدراقطني في «العلل» (٨/ سؤال ١٥٩٢). وعزا الحديث السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٩٢) إلى الحكيم الترمذي، والشيرازي، وابن مردويه.

٦٢- دعواهم العمل بالحق الذي عندهم

(الثَّانِيَةُ وَالسِّتُّونَ): دَعْوَاهُمُ الْعَمَلَ بِالْحَقِّ الَّذِي عِنْدَهُمْ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]. أَيْ: نَسْتَمِرُّ عَلَى الْإِيمَانِ بِالتَّوْرَاةِ وَمَا فِي حُكْمِهَا مِمَّا أُنْزِلَ لِتَقْرِيرِ حُكْمِهَا. وَمُرَادُهُمْ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ إِمَّا أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ بِالْقُرْآنِ كَانَ بَغْيًا وَحَسَدًا عَلَى نُزُولِهِ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَإِمَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَعْنَى الْإِنْزَالِ عَلَيْهِمْ: تَكْلِيفُهُمْ بِمَا فِي الْمُنَزَّلِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَنَدِمُوا عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّعْرِيضِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ. وَدَسَائِسُ الْيَهُودِ مَشْهُورَةٌ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ.

٦٣- الزيادة في العبادة

(... الثَّالِثَةُ وَالسِّتُّونَ): الزِّيَادَةُ فِي الْعِبَادَةِ، كَفِعْلِهِمْ يَوْمَ عَاشُورَاءَ[1].

٦٤- النقص من العبادة

(... الرَّابِعَةُ وَالسِّتُّونَ): النَّقْصُ مِنْهَا، كَتَرْكِهِمُ الْوُقُوفَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]. أَيْ:

(١) انظر شرحي للمسألة: (٦٨)، وشرح السعيد (٢/ ٥٨٠-٥٨٧)، وشرح الشيخ الفوزان (صـ٢٠٣)، وأشقى الناس بمتابعة الجاهليين الرافضة في التزيد من البدع باسم التعبد في يوم عاشوراء وغيره، وحسبنا الله ونعم الوكيل!

مِنْ عَرَفَةَ لَا مُزْدَلِفَة. وَالْخِطَابُ عَامٌّ، وَالْمَقْصُودُ إِبْطَالُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْحُمْسُ مِنَ الْوُقُوفِ بِجَمْعٍ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا قالت: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفُ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضُ مِنْهَا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[1] [البقرة:١٩٩] وَمَعْنَاهَا: ثُمَّ أَفِيضُوا أَيُّهَا الْحُجَّاجُ مِنْ مَكَانٍ أَفَاضَ جِنْسُ النَّاسِ مِنْهُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُوَ عَرَفَةُ لَا مِنْ مُزْدَلِفَةَ.

٦٥- تعبدهم بترك الطيبات من الرزق

(... الخَامِسَةُ وَالسِّتُّونَ): تَعَبُّدُهُمْ بِتَرْكِ أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، وَتَرْكِ زِينَةِ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣١-٣٢]. وَسَبَبُ النُّزُولِ عَلَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ أُنَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً، حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ لَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ، فَتُعَلِّقُ عَلَى سُفْلِهَا سُيُورًا مِثْلَ هَذِهِ السُّيُورِ الَّتِي تَكُونُ عَلَى وَجْهِ الْحُمُرِ مِنَ الذُّبَابِ، وَهِيَ تَقُولُ:

الْيَوْمَ يَبْدُوْ بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ[2]

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٠) ومسلم (١٢١٩)، وانظر ما تقدم في المسألة: (٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢٨) كما تقدم تحت المسألة (٢٧).

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ... إلخ ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ مِمَّا طَابَ لَكُمْ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَأْكُلُونَ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا قُوتًا، وَلَا يَأْكُلُونَ دَسَمًا فِي أَيَّامِ حَجِّهِمْ؛ يُعَظِّمُونَ بِذَلِكَ حَجَّهُمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْآيَةَ[1]، وَمِنْهُ يَظْهَرُ وَجْهُ ذِكْرِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ هُنَا.

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، كَمَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِسَبَبِ النُّزُولِ، أَوْ بِالتَّعَدِّي إِلَى الْحَرَامِ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ مِنَ الثِّيَابِ وَكُلُّ مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ، ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ أَيْ: مِنَ الْمُسْتَلَذَّات، وَقِيلَ الْمُحَلَّلَاتِ، مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ كَلَحْمِ الشَّاةِ وَشَحْمِهَا وَلَبَنِهَا. ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ: هِيَ لَهُمْ بِالْأَصَالَةِ لِمَزِيدِ كَرَامَتِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى، والكفرة إِنْ شَارَكُوهُمْ فِيهَا فَبِالتَّبَعِ، ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ.

٦٦- تعبُّدهم بالمُكاءِ والتَّصْدِيَةِ

(... السَّادِسَةُ وَالسِّتُّونَ): تَعَبُّدُهُمْ بِالْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٥].

تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الأنفال:٣٥] أَيْ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي صَدُّوا الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْبَيْتِ لِلِاخْتِصَارِ مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ بَيْتُ اللهِ تَعَالَى، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعَظَّمَ بِالْعِبَادَةِ، وَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا مُكَاءً -أَيْ: صَفِيرًا- وَتَصْدِيَةً -أَيْ: تَصْفِيقًا-، وَهُوَ ضَرْبُ الْيَدِ بِالْيَدِ بِحَيْثُ يُسْمَعُ

---

(١) معلق معضل، والكلبي متروك، تقدم تحت المسألة (٢٨).

لَهُ صَوْتٌ.

وَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ إِمَّا الدُّعَاءُ، أَوْ أَفْعَالٌ أُخَرَ كَانُوا يَفْعَلُونَهَا وَيُسَمُّونَهَا صَلَاةً، وَحَمْلُ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ عَلَيْهَا بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ، بِأَنَّهَا لَا فَائِدَةَ فِيهَا، وَلَا مَعْنَى لَهَا، كصفير الطُّيُورِ وَتَصْفِيقِ اللَّعِبِ. وَقَدْ يُقَالُ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ وَضَعُوا الْمُكَاءَ وَالتَّصْدِيَةَ مَوْضِعَ الصَّلَاةَ الَّتِي لَا يَلِيقُ أَنْ تَقَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ. يُرْوَى أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ يَخْلِطُونَ عَلَيْهِ بِالصَّفِيْرِ وَالتَّصْفِيقِ[1]. وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُصَلُّونَ أَيْضًا. وَيُرْوَى[2] أَنَّهُمْ كَانُوا يَطُوفُونَ عُرَاةً: الرِّجَالُ، وَالنِّسَاءُ، مُشَبِّكِيْنَ بَيْنَ أَصَابِعِهِمْ، يُصَفِّرُونَ فِيهَا وَيُصَفِّقُونَ، وَبَاقِي الْآيَةِ مَعْلُومٌ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ لَا تَكُونُ عِبَادَةً، بَلْ مِنْ شَعَائِرِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَمَا يَفْعَلُهُ الْيَوْمَ بَعْضُ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَاجِدِ، مِنَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ -يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ اللهَ- فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ فِعْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

مَا أَحْسَنَ مَا يَقُولُ الْقَائِلُ فِيهِمْ:

أَقَالَ اللهُ: صَفِّقْ لِي وَغَنِّ ... وَقُلْ كُفْرًا وَسَمِّ الْكُفْرَ ذِكْرا؟

---

(١) جاء عن مجاهد. أخرجه ابن جرير (١١/ ١٦٥)، وأخرج بعضه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٥-١٦٩٦)، وهو صحيح إلى مجاهد. وانظر: «الدر المنثور» (٧/ ١١٥-١١٨).

(٢) جاء عن ابن عباس ﵄. أخرجه الطبري (١١/ ١٦٤) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٦) بلفظ: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، يصفرون، ويصفقون؛ فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ...﴾ الآية [الأعراف:٣٢]. « فأمروا بالثياب». وسنده ضعيف؛ فيه يعقوب بن عبدالله الأشعري؛ فيه ضعف، وأخرج الطبري (١١/ ١٦٥) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٦) من طريق طلحة بن عمرو عن سعيد بن جبير، فذكر الآية. قال: المكاء: كانوا يشبكون بين أصابعهم، ويصفرون بها فذلك المكاء قلت: وطلحة بن عمرو متروك كما في «التقريب».

وَقَدْ جَعَلَ الشَّارِعُ صَوْتَ الْمَلَاهِي صَوْتَ الشَّيْطَانِ[1]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[الإسراء:٦٤].

٦٧- النفاق في العقيدة

(... السَّابِعَةُ وَالسِّتُّوْنَ): دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا خَرَجُوا خَرَجُوا بِالْكُفْرِ الَّذِي دَخَلُوا بِهِ.

٦٨- دعاؤهم إلى الضلال بغير علم

(... الثَّامِنَةُ وَالسِّتُّوْنَ): دُعَاؤُهُمُ النَّاسَ إِلَى الضَّلَالَ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

٦٩- دعاؤهم إلى الكفر مع العلم

(... التَّاسِعَةُ وَالسِّتُّوْنَ): دُعَاؤُهُمُ النَّاسَ إِلَى الْكُفْرِ مَعَ الْعِلْمِ[2].

٧٠- المكر الكُبَّار

(... السَّبْعُونَ): الْمَكْرُ الْكُبَّارُ. كَفِعْلِ قَوْمِ نُوحٍ.

---

(١) هذا على تفسير قوله بصوتك باللهو والغناء، وهو مروي عن مجاهد عند الطبري (١٤/٦٥٧) وغيره، ولكن في سنده ليث بن أبي سُليم وهو ضعيف، والصحيح في معنى ذلك: أنه كل صوت يدعو إلى معصية، وهذا صح عن قتادة عند ابن جرير، واختاره ابن جرير، وحكاه الحافظ ابن كثير وسكت عليه.

(٢) انظر شرح هذه المسائل في "الشروح" المشار إليها في المسألة المتقدمة برقم (٦٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٢-٢٤]. وَمَعْنَى (الْكُبَّار): الْكَبِيرَ.

وَالْمَكْرُ الْكُبَّارُ: احْتِيَالُهُمْ فِي الدِّينِ، وَصَدُّهُمْ لِلنَّاسِ عَنْهُ، وَإِغْرَاؤُهُمْ وَتَحْرِيضُهُمْ عَلَى أَذِيَّة نُوحٍ ﷺ. وَهَكَذَا فَعَلَ أَخْلَافُ هَؤُلَاءِ مِنْ مَرَدَةِ الدِّينِ وَأَتْبَاعِ الْهَوَى وعَبَدَةِ الدُّنْيَا، يَفْعَلُونَ مَعَ دُعَاةِ الْحَقِّ؛ كَمَا فَعَلَ قَوْمُ نُوحٍ ﷺ مَعَهُ، قَدْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ.

نَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُعِيذَ رِجَالَ الْحَقِّ مِنْ كَيْدِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْفَجَرَةِ، وَيَصُونَهُمْ مِنْ مَكْرِهِمْ.

وَقَدْ جَرَّبْتُهُمْ فَرَأَيْتُ مِنْهُمْ خَبَائِثَ بِالْمُهَيْمِنِ نَسْتَجِيرُ

٧١- حالة علمائهم

(... الْحَادِيَة وَالسَّبْعُونَ): أَئِمَّتُهُمْ إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٩]. فَذَكَرَ فِي الْآيَةِ أَنَّ فَرِيقًا مِنْ أَسْلَافِ الْيَهُودِ -وَهُمُ الْأَحْبَارُ- كَانُوا يَسْمَعُونَ التَّوْرَاةَ وَيُؤَوِّلُونَهَا تَأْوِيلًا فَاسِدًا حَسَبَ أَغْرَاضِهِمْ، بَلْ

كَانُوا يُحَرِّفُونَهَا بِتَبْدِيلِ كَلَامٍ مِنْ تِلْقَائِهِمْ؛ كَمَا فَعَلُوا ذَلِكَ فِي نَعْتِهِ ﷺ، فَإِنَّهُ رُوِيَ أَنَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ فِيهَا: أَنَّهُ أَبْيَضُ رَبْعَة؛ فَغَيَّرُوهُ: بِأَسْمَرَ طَوِيلٌ[(١)]، وَغَيَّرُوا آيَةَ الرَّجْمِ بِالتَّسْخِيمِ، وَتَسْوِيدِ الْوَجْهِ كَمَا فِي البُخَارِيِّ[(٢)].

﴿وَمِنْهُمْ﴾ فَرِيقٌ ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إِلَّا بِالدَّعَاوِي الْكَاذِبَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ: جَهَلَةٌ مُقَلِّدَةٌ، لَا إِدْرَاكَ لَهُمْ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَقَامِ يُطْلَبُ مِنَ التَّفْسِيرِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ تَحْرِيفَ الْكَلِمِ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَى، وَالْقَوْلَ عَلَى اللهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ حَالَ أَحْبَارِ السُّوءِ الْيَوْمَ وَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا يُعْلَمُ، قَدْ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَتَأْوِيلِ النُّصُوصِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَحِي مِنْهُ الْإِسْلَامُ. وَالْأَمْرُ لِلهِ!

٧٢- زعمهم أنهم هم أولياء الله

(... الثَّانِيَةُ وَالسَّبْعُونَ): زَعْمُهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

دَلِيلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾[الجمعة:٦]. أَيْ: تَهَوَّدُوا، أَيْ: صَارُوا يَهُودَ: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ أَيْ: أَحِبَّاءٌ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَلَمْ يُضِفْ أَوْلِيَاءَ إِلَيْهِ تَعَالَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾[يونس:٦٢] لِيُؤْذَنَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ مُدَّعِي الْوِلَايَةِ وَمَنْ يَخُصُّهُ بِهَا. ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: مُتَجَاوِزِينَ عَنِ النَّاسِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أَيْ: فَتَمَنَّوْا مِنَ اللهِ تَعَالَى

---

(١) تقدم في المسألة (٣٩).

(٢) في البخاري (٧٥٤٣) ومسلم (١٦٩٩) (٢٧) عن ابن عمر، وانظر كتابي: "توضيح النبإ عن مؤسس الشعية عبدالله بن سبأ" (ص ١٧٤).

أَنْ يُمِيتَكُمْ، وَيَنْقُلَكُمْ مِنْ دَارِ الْبَلِيَّةِ إِلَى مَحَلِّ الْكَرَامَةِ. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فِي زَعْمِكُمْ، وَاثِقِينَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ؛ فَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّصَ إِلَيْهَا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي هِيَ قَرَارَةُ الْإِنْكَارِ وَالأَكْدَارِ.

وأُمِرَ ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِكَذِبِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة:١٨] وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْآخِرَةَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً وَيَقُولُونَ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾[البقرة:١١١] كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْكِتَابِيِّينَ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ١١١-١١٢].

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَتَبَتْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ لِيَهُودِ خَيْبَرَ: إِنِ اتَّبَعْتُمْ مُحَمَّدًا أَطَعْنَاهُ، وَإِنْ خَالَفْتُمُوهُ خَالَفْنَاهُ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَمِنَّا عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَالْأَنْبِيَاءُ، وَمَتَى كَانَتِ النُّبُوَّةُ فِي الْعَرَبِ؟! نَحْنُ أَحَقُّ بِهَا مِنْ مُحَمَّدٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّبَاعِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾[1]. الْآيَةَ.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ إِخْبَارٌ بِحَالِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِ، وَهُوَ عَدَمُ تَمَنِّيهِمُ الْمَوْتَ، وَذَلِكَ خَاصٌّ بِأُولَئِكَ الْمُخَاطَبِينَ.

وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَقُولُهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا غَصَّ بِرِيقِهِ**»[2] فَلَمْ يَتَمَنَّهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُوقِنِينَ

---

(١) ذكره في "روح المعاني" (١٥/ ١٤١)، ولم أقف عليه مسندًا، ولا أراه يثبت.

(٢) ضعيف جدًّا. أخرجه البيهقي في "الدلائل" (٦/ ٢٧٤) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﵄ مرفوعًا، فذكره مطولًا قلت: محمد بن مروان متَّهم=

بِصِدْقِهِ ﷺ، فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ لَوْ تَمَنَّوْا؛ لَمَاتُوا مِنْ سَاعَتِهِمْ وَلَحِقَهُمُ الْوَعِيدُ، وَهَذِهِ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: انْتَفَى تمنيهم بِسَبَبِ مَا قَدَّمَتْ، وَالْمُرَادُ بِمَا قَدَّمَتْهُ أَيْدِيهِمْ: الْكُفْرُ وَالْمَعَاصِي الْمُوجِبَةُ لِدُخُولِ النَّارِ[1]، وَلَمَّا كَانَتِ الْيَدُ مِنْ بَيْنِ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ مَنَاطَ (عَامَّةِ)[2] أَفْعَالِهِ، عَبَّرَ بِهَا تَارَةً عَنِ النَّفْسِ وَأُخْرَى عَنِ الْقُدْرَةِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: بِهِمْ، وَإِيثَارُ الْإِظْهَارِ عَلَى الْإِضْمَارِ لِذَمِّهِمْ، والتسجيل عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ فِي كُلِّ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا ادِّعَاءُ مَا هُمْ عَنْهُ بِمَعْزِلٍ، أَيْ: وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ فُنُونِ الظُّلْمِ وَالْمَعَاصِي، وَبِمَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ [الجمعة:٨] وَلَا تجسرون عَلَى أَنْ تَمَنَّوْهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ تُؤْخَذُوا بِوَبَالِ أَفْعَالِكُمْ؛ ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ الْبَتَّةَ مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ يَلْوِيهِ وَلَا عَاطِفٍ يَثْنِيهِ. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، بِأَنْ يُجَازِيَكُمْ بِهَا، وَهَذَا دَيْدَنُ الزَّائِغِينَ، وَشَأْنُ الْمُلْحِدِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ.

﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة:١٨] وَقَدْ وَرِثَ هَذِهِ الْخَصْلَةَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْتَمِي إِلَى الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،

= بالكذب، والكلبي متروك وأبو صالح ضعيف، وأخرجه عبدالرزاق كما في "تفسير ابن كثير" (١/ ٤٩١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١/ ٢٨٥)، عن ابن عباس من قوله، وهو صحيح إلى ابن عباس. قال ابن كثير بعد ذكره السندين من أسانيده: هذه أسانيد صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنه. ولم يسمع من ابن عباس.

(١) المعاصي تحت مشيئة الله: إن شاء عذب بها بعدله وحكمته، وإن شاء غفرها بفضله وإحسانه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

(٢) من (ط)

بَلْ كُلٌّ مِنَ الْفِرَقِ مَنْ يَقُولُ: نَحْنُ أَوْلِيَاءُ اللهِ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثِ الْفِرَقِ فِي بَيَانِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: «وَهُمْ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[١].

٧٣- دعوى محبة الله مع ترك شرعه

(... الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُونَ): دَعْوَاهُمْ مَحَبَّةَ اللهِ، مَعَ تَرْكِ شَرْعِهِ، فَطَالَبَهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١].

قَالَ الْحَسَنُ[٢] وَابْنُ جُرَيْجٍ[٣]: زَعَمَ أَقْوَامٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ؛ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نُحِبُّ رَبَّنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قُرَيْشٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَدْ نَصَبُوا أَصْنَامَهُمْ، وَعَلَّقُوا عَلَيْهَا[٤] بَيْضَ النَّعَامِ، وَجَعَلُوا فِي آذَانِهَا الشُّنُوفَ[٥]، وَهُمْ يَسْجُدُونَ لَهَا. فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ خَالَفْتُمْ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَلَقَدْ كَانَا عَلَى الْإِسْلَامِ».

---

(١) ضعيف. تقدم في المسألة رقم (٢٥).

(٢) مرسل ضعيف جدًا. أخرجه الطبري (٥/ ٣٢٥) والآجري في «الشريعة» (٢٥٤) وابن بطة في «الإبانة» (١٠٥٨) من طريق أبي عبيدة الناجي، عن الحسن... فذكره، قلت: أبو عبيدة هو بكر بن الأسود: كذَّبه ابن معين، وقال النسائي: ليس بثقة، وله طريق أخرى عند الطبري، وابن أبي حاتم، من طريق عباد بن منصور، عن الحسن، وعباد ضعيف ويدلس.

(٣) مرسل حسن. أخرجه الطبري (٥/ ٣٢٥) وعزاه السيوطي في «الدر» (٣/ ٥٠٩) إلى ابن المنذر.

(٤) في (ط) فيها.

(٥) الشنف: القرط الأعلى، أو معلاق في قُوْفِ الأذن، أو ما علق في أعلاها. جمعه شنوف. وما علق في أسفل الأذن قرط.

فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّمَا نَعْبُدُ هَذِهِ حُبًّا لِلَّهِ؛ لِتُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ زُلْفَى. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ ...[1] إلخ [آل عمران:٣١]. وَفِي رِوَايَةِ أَبِي صَالِحٍ[2] أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَلَمَّا نَزَلَتْ عَرَضَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْيَهُودِ فَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوهَا. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: نَزَلَتْ فِي نَصَارَى نَجْرَانَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا نُعَظِّمُ الْمَسِيحَ، نَعْبُدُهُ حَبًّا لِلَّهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ؛ رَدًّا عَلَيْهِمْ[3].

وَبِالْجُمْلَةِ: إِنَّ مَنْ تَلَبَّسَ بِالْمَعَاصِي لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَدَّعِي مَحَبَّةَ اللهِ. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

٧٤- تمنيهم على الله الأماني الكاذبة

(... الرَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ): تمنيهم عَلَى اللهِ تَعَالَى الْأَمَانِيَّ الْكَاذِبَةَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ

(١) ضعيف جدًّا. ذكره البغوي في "تفسيره" (١/ ٢٩٣)، وذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص٨٦) معلقا من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس وجويبر متروك، والضحاك لم يدرك ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ضعيف جدًا. ذكره الواحدي في "الأسباب" (ص٨٦)، معلقا، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك وأبو صالح ضعيف ولم يسمع من ابن عباس.

(٣) معضل ضعيف الإسناد. ذكره الواحدي في "الأسباب" (ص٨٧) من طريق محمد بن إسحاق به، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، ومحمد بن جعفر ثقة لكنه من السادسة كما في "التقريب".

ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٣-٢٤].

أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَجَمَاعَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ الْمِدْرَاسِ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ يَهُودَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى. فَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ عَمْرٍو وَالْحَارِثُ بْنُ زَيْدٍ: عَلَى أَيِّ دِيْنٍ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ».

قَالَا: فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا. فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَهَلُمَّا إِلَى التَّوْرَاةِ، فَهِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَأَبَيَا عَلَيْهِ» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْآيَةَ[1].

وَفِي «الْبَحْرِ»[2]: زَنَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ[3] بِامْرَأَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي دِينِنَا الرَّجْمُ، فَتَحَاكَمُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَخْفِيفًا عَلَى[4] الزَّانِيَيْنِ لِشَرَفِهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا أَحْكُمُ بِكِتَابِكُمْ» فَأَنْكَرُوا الرَّجْمَ، فَجِيءَ بِالتَّوْرَاةِ، فَوَضَعَ حَبْرُهُمْ ابْنُ صُورِيَا[5] يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلَامٍ: جَاوَزَهَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَظْهَرَهَا، فَرُجِمَا[6]. فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ، فَنَزَلَتْ[7]، وَمَعْنَى قَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران:٢٤] أَيِ: الْمَذْكُورُ مِنَ التَّوَلِّي وَالْإِعْرَاضِ، حَاصِلٌ لَهُمْ؛ بِسَبَبِ هَذَا الْقَوْلِ، الَّذِي رَسَّخَ اعْتِقَادَهُمْ بِهِ، وَهَوَّنُوا بِهِ الْخُطُوبَ، وَلَمْ يُبَالُوا مَعَهُ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ. وَالْمُرَادُ بِالْأَيَّامِ

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن جرير (٥/٢٩٣) وفي سنده محمد بن أبي محمد، مجهول، وعزاه السيوطي في «الدر» إلى: ابن المنذر.

(٢) يعني: «البحر المحيط» لأبي حيان وهذا الكلام في (٢/٤١٦) منه حيث قال: وقال الكلبي: زنى رجل... فذكره.

(٣) في «البحر»: (منهم).

(٤) في «البحر»: (للزانيين).

(٥) في «البحر»: (حبرهم ابن صوريا).

(٦) ليست في «البحر».

(٧) معلق معضل، وأصل القصة في «الصحيحين» كما تقدم في المسألة (٧١) من حديث ابن عمر ﷺ.

الْمَعْدُودَاتِ: أَيَّامُ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ. ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[آل عمران:٢٤] أَيْ: غَرَّهُمُ افْتِرَاؤُهُمْ وَكَذِبُهُمْ، أَوِ الَّذِي كَانُوا يَفْتَرُونَهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾[آل عمران:٢٤] أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة:١٨] أَوْ مِمَّا يَشْمَلُ ذَلِكَ وَنَحْوَهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ آبَاءَنَا الْأَنْبِيَاءَ يَشْفَعُونَ لَنَا، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى وَعَدَ يَعْقُوبَ أَلَّا يُعَذِّبَ أَبْنَاءَهُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾... إلخ[1] [آل عمران:٢٥] رُوِيَ أَنَّ أَوَّلَ رَايَةٍ تُرْفَعُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ مِنْ رَايَاتِ الْكُفَّارِ رَايَةُ الْيَهُودِ، فيفضحهم اللهُ تَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ.

وَهَكَذَا رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ؛ اعْتِمَادًا عَلَى الشَّفَاعَةِ، أَوْ عَلَى عُلُوِّ الْحَسَبِ، وَشَرَفِ النَّسَبِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ. ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٨٠-٨١].

٧٥- اتخاذ قبور الصالحين مساجد

(... الْخَامِسَةُ وَالسَّبْعُونَ): اتِّخَاذُ قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ.

هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ خِصَالِ الْكِتَابِيِّينَ أَيَّامَ جَاهِلِيَّتِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ وَرَدَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[2] ثُمَّ قَالَ:

---

(١) وقد قال النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، عن أبي هريرة ﷺ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

(٢) إلى هنا أخرجه البخاري (١٣٣٠) ومسلم (٥٢٩) عن عائشة ﷺ، وجاء بنحوه عن جماعة من =

«فَلَا تَتَّخِذُوهَا مَسَاجِدَ»[(١)] وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ"[(٢)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ!» وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ[(٣)]: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ!». وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ" عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ[(٤)] قَالَ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ!» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ"[(٥)] أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ وَأُمَّ حَبِيبَةَ ذَكَرَتَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا (مَارِيَة)، وَذَكَرَتَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُولَئِكِ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ -أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ- بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ». وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ والسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ[(٦)].

= الصحابة غيرها، انظرها في "تحذير الساجد" (ص٩) وما بعدها.

(١) هذه اللفظة، يوهم كلام المصنف أنها من الحديث السابق، ولم أرها فيه، ولكن أخرج مسلم (٥٣٢) عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه حديثًا وفيه: «**ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ إني أنهاكم عن ذلك**».

(٢) البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)، ولفظ: «والنصارى» انفرد به مسلم.

(٣) برقم (٥٣٠)، (٢١).

(٤) البخاري برقم (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

(٥) البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٦) ضعيف. أخرجه أبوداود (٣٢٢٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٤/ ٩٤-٩٥)، وابن ماجه (١٥٧٥)، ولكن لفظ ابن ماجه: «**لعن رسول الله زوارات القبور**» وهذا خطأ: إما من ابن ماجه، أو شيخه، أزهر بن مروان؛ إذ الحديث مروي عن جماعة: عن محمد بن جُحَادَة، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعًا بلفظ: «**لعن رسول الله زائرات القبور، والمتخذين** =

= عليها المساجد والسراج» وهو بهذا اللفظ ضعيف، بل منكر؛ فإنه تفرد به أبو صالح باذان، ويقال باذام، وهو ضعيف، ومع ضعفه يخالف ما جاءت به الأحاديث الدالة على جواز الزيارة، منها حديث بريدة عند مسلم (٩٧٧): « **كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**» ونحوه من الأحاديث نعم أخرج الطيالسي (٢٣٥٨)، وأحمد (٢/ ٣٣٧)، وابن ماجه (١٥٧٦)، والترمذي (١٠٥٦)، وأبو يعلى (٥٩٠٨)، وابن حبان (٣١٧٨)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، وغيرهم من طرق عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: « **أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور**» وجميع رجال السند ثقات، غير عمر بن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عوف، وهو مختلف فيه، وأقل أحواله أن يكون حديثه صالحًا في الشواهد، وأما الحافظ فقال: صدوق يخطئ. وله وجه في ذلك، وقد قال الترمذي عن هذا الحديث: حسن صحيح.

وله شاهد عن حسان بن ثابت، أخرجه ابن ماجه (١٥٧٤)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وأحمد (٣/ ٤٤٢-٤٤٣)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٢٠٧١)، والطبراني في "الكبير" (٣٥٩١)، (٣٥٩٢)، والحاكم (١/ ٣٧٤)، من طريق سفيان الثوري، عن ابن خُثَيْم، عن عبد الرحمن بن بَهْمَانَ، عن عبد الرحمن بن حسان، عن أبيه، قال: « **لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور**» .

قلت: وابن خُثَيْم هو عبدالله بن عثمان بن خثيم القارئ، صدوق كما قال الحافظ في "التقريب".

وعبد الرحمن بن بهمان هو الحجازي، وعنه ابن خثيم، وقال ابن المديني: لا أعرفه، وذكره ابن حبان في "الثقات"، ووثقه العجلي، لذا قال الحافظ في "التقريب": مقبول، يعني: إن توبع إلا فَلَيِّن، وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت أبو محمد الخزرجي يقال: إنه ولد في عهد النبي ﷺ ، وروى عنه جمع من الثقات، ولا يذكر بجرح، وذكره ابن حبان في "الثقات" فيكون حسن الحديث، والله أعلم.

قلت: فعلى هذا يكون الحديث بمجموع طريقيه حسنًا لغيره، والله أعلم. وقد مال إلى تقوية هذه اللفظة: « **لعن زائرات القبور**» ابن الملقن في "البدر المنير" (٥/ ٣٤٥-٣٤٦). والشيخ الألباني في "الضعيفة" (٢٢٥)، وصرح بتحسينه في "هداية الرواة" تحت رقم (٧٠٦).

فائدة: قال ابن القيم في "تهذيب السنن" (٤/ ٣٤٨):

وقد اختلف في زيارة النساء للمقابر على ثلاثة أقوال:

أحدها: التحريم؛ لهذه الأحاديث. =

= والثاني: يكره من غير تحريم، وهذا منصوص أحمد في إحدى الروايات عنه.

وحجة هذا القول: حديث أم عطية المتفق عليه: «**نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا**» وهذا يدل على أن النهي عنه للكراهة لا للتحريم.

والثالث: أنه مباح لهن غير مكروه، وهو الرواية الأخرى عن أحمد.

واحتج لهذا القول بوجوه.

أحدها: ما روى مسلم في صحيحه من حديث بريدة، عن النبي ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»، وفيه أيضًا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**زوروا القبور؛ فإنها تذكر الموت**».

قالوا: وهذا الخطاب يتناول النساء بعمومه، بل هن المراد به، فإنه إنما علم نهيه عن زيارتها للنساء دون الرجال، وهذا صريح في النسخ؛ لأنه قد صرح فيه بتقدم النهي، ولا ريب في أن المنهي عن زيارة القبور هو المأذون له فيها، والنساء قد نهين عنها فيتناولهن الإذن.

قالوا: وأيضًا فقد قال عبدالله بن أبي مُلَيْكَةَ لعائشة: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن، فقلت لها: أليس قد نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، قد نهى، ثم أمر بزيارتها. رواه البيهقي من حديث يزيد بن زُرَيْعٍ عن بِسْطَامِ بن مسلم عن أبي التَّيَّاحِ عن ابن أبي مليكة، قال: تُوفي عبد الرحمن بن أبي بكر بحيسى، فحمل إلى مكة، فدفن، فلما قدمت عائشة أتت قبر عبد الرحمن، فقالت:

وكنـا كنـدماني جذيـمة حقبـة ... من الدهر، حتى قيل: لن يتصدَعا

فلـما تفرقنـا، كـأني ومالكًـا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معًا

ثم قالت: والله! لو حضرتك، ما دفنت إلا حيث مت، ولو شهدتك ما زرتك.

قالوا: وأيضًا فقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أنس قال: مر النبي ﷺ بامرأة عند قبر تبكي على صبي لها، فقال لها: «**اتقي الله، واصبري!**»، فقالت: وما تبالي بمصيبتي.

فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه، فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله، لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»، وترجم عليه البخاري: (باب زيارة القبور).

قالوا: ولأن تعليله زيارتها بتذكير الآخرة أمر يشترك فيه الرجال والنساء، وليس الرجال بأحوج إليه منهن.

قال الأولون: أحاديث التحريم صريحة في معناها، فإن رسول الله ﷺ لعن النساء على=

= الزيارة واللعن على الفعل من أدل الدلائل على تحريمه، ولا سيما وقد قرنه في اللعن بالمتخذين عليها المساجد والسراج، وهذا غير منسوخ، بل لعن في مرض موته من فعله، كما تقدم.

قالوا: وقوله ﷺ: «كنت نهيتكم» إنما هو صيغة خطاب للذكور، والإناث وإن دخلن فيه تغليبًا، فهذا حديث لا يكون دليلًا صريحًا يقتضي عدم دخولهن، وأحاديث التحريم من أظهر القرائن على عدم دخولهن في خطاب الذكور.

قالوا: وأما قولكم: إن النهي إنما كان للنساء خاصة، فغير صحيح؛ لأن قوله: «كنت نهيتكم» خطاب للذكور أصلًا ووضعًا، فلا بد وأن يتناولهم وحدهم، ولو كان النهي إنما كان للنساء خاصة لقال: «كنت نهيتكن»، ولم يقل: «نهيتكم» بل كان في أول الإسلام قد نهى عن زيارة القبور؛ صيانة لجانب التوحيد، وقطعًا للتعلق بالأموات، وسدًّا لذريعة الشرك التي أصلها تعظيم القبور وعبادتها، كما قال ابن عباس؛ فلما تمكن التوحيد من قلوبهم واضمحل الشرك؛ واستقر الدين، أذن في زيارة يحصل بها مزيد الإيمان، وتذكير ما خُلِقَ العبد له من دار البقاء، فأذن حينئذ فيها، فكان نهيه عنها للمصلحة وإذنه فيها للمصلحة، وأما النساء: فإن هذه المصلحة، وإن كانت مطلوبة منهن، لكن ما يقارن زيارتهن من المفاسد التي يعلمها الخاص والعام من فتنة الأحياء، وإيذاء الأموات، والفساد الذي لا سبيل إلى دفعه إلا بمنعهن منها، أعظم مفسدة من مصلحة يسيرة تحصل لهن بالزيارة، والشريعة مبناها على تحريم الفعل إذا كانت مفسدته أرجح من مصلحته، ورجحان هذه المفسدة لا خفاء به، فمنعهن من الزيارة من محاسن الشريعة.

وقد روى البيهقي وغيره من حديث محمد بن الحنفية عن علي أن النبي ﷺ خرج في جنازة فرأى نسوة جلوسًا، فقال: ما يجلسكن؟ فقلن: الجنازة، فقال: أتحملن في مَنْ يحمل؟ قلن: لا، قال: فتدلين في من يُدْلي؟ قلن: لا، قال: فتغلسن في من يغسل؟ قلن: لا، قال: فارجعن مأزورات غير مأجورات، وفي رواية: فتحثين في من يحثو؟ ولم يذكر الغسل.

فهذا يدل على أن اتباعهن الجنازة وزر لا أجر لهن فيه؛ إذ لا مصلحة لهن، ولا للميت في اتباعهن لها، بل فيه مفسدة للحي والميت.

قالوا: وأما حديث عائشة: فالمحفوظ فيه حديث الترمذي مع ما فيه، وعائشة إنما قدمت مكة للحج، فمرت على قبر أخيها في طريقها فوقفت عليه، وهذا لا بأس به، إنما الكلام في قصدهن الخروج لزيارة القبور.

ولو قدر أنها عدلت إليه وقصدت زيارته، فهي قد قالت: لو شهدتك لما زرتك. وهذا يدل =

فَهَذَا التَّحْذِيرُ مِنْهُ، وَاللَّعْنُ عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ عَلَى قَبْرِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، صَرِيحٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْمُشَابَهَةِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْحَذَرِ عَنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ، حَيْثُ لَا يُؤْمَنُ فِي سَائِرِ أَعْمَالِهِمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ.

ثُمَّ مِنَ الْمَعْلُومِ مَا قَدِ ابْتُلِيَ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ مِنْ بِنَاءِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ،

= على أنه من المستقر المعلوم عندها: أن النساء لا يُشرع لهن زيارة القبور، وإلا لم يكن في قولها ذلك معنى. وأما رواية البيهقي، وقولها: «نهى عنها ثم أمر بزيارتها». فهي من رواية بِسْطَامِ بن مسلم ولو صح فهي تأولت ما تأول غيرها من دخول النساء، والحجة في قول المعصوم، لا في تأويل الراوي، وتأويله إنما يكون مقبولاً، حيث لا يعارضه ما هو أقوى منه، وهذا قد عارضه أحاديث المنع. قالوا: وأما حديث أنس: فهو حجة لنا، فإنه لم يقرها، بل أمرها بتقوى الله التي هي فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، ومن جملتها: النهي عن الزيارة، وقال لها: «**اصبري**». ومعلوم أن مجيئها إلى القبر، وبكاءها مناف للصبر، فلما أبت أن تقبل منه، ولم تعرف انصرف عنها، فلما علمت أنه ﷺ هو الآمر لها جاءته تعتذر إليه من مخالفة أمره، فأي دليل في هذا على جواز زيارة النساء؟! اهـ

وبعد، فلا يعلم أن هذه القضية كانت بعد لعنه ﷺ زائرات القبور، ونحن نقول: إما أن تكون دالة على الجواز، فلا دلالة على تأخرها عن أحاديث المنع أو تكون دالة على المنع، بأمرها بتقوى الله، فلا دلالة فيها على الجواز، فعلى التقديرين: لا تعارض أحاديث المنع، ولا يمكن دعوى نسخها بها، والله أعلم.

وأما قول أم عطية: «نهينا عن اتباع الجنائز» فهو حجة للمنع.

وقولها: «ولم يعزم علينا» إنما نفت فيه وصف النهي، وهو النهي المؤكد بالعزيمة.

وليس ذلك شرطًا في اقتضاء التحريم، بل مجرد النهي كاف، ولما نهاهن انتهين؛ لطواعيتهن لله ولرسوله، فاستغنين عن العزيمة عليهن، وأم عطية لم تشهد العزيمة في ذلك النهي، وقد دلت أحاديث لعنة الزائرات على العزيمة، فهي مثبتة للعزيمة، فيجب تقديمها، وبالله التوفيق.

والثاني: يكره من غير تحريم، وهذا منصوص أحمد في إحدى الروايات عنه، وحجة هذا القول حديث أم عطية المتفق عليه: نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا. وهذا يدل على أن النهي عنه للكراهة لا التحريم، وانظر شرح السنة للبغوي (٢/٤١٧) و"فتح الباري" (٣/١٤٨-٢٤٩).

وَاتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ بِلَا بِنَاءٍ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُحَرَّمٌ مَلْعُونٌ فَاعِلُهُ؛ بِالْمُسْتَفِيضِ مِنَ السُّنَّةِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِقْصَاءِ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ؛ وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يُبَالِغُونَ فِي الْمَنْعِ[1].

٧٦- اتخاذ آثار الأنبياء مساجد

(... السَّادِسَةُ وَالسَّبْعُونَ): اتِّخَاذُ آثَارِ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، كَمَا وَرَدَ عَنْ عُمَرَ[2] رضي الله عنه.

فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ أَيْضًا مِنْ بِدَعِ جَاهِلِيَّةِ الْكِتَابِيِّينَ؛ كَانُوا يَتَّخِذُونَ آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، فَوَرِثَهُمُ الْجَاهِلُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَتَرَاهُمْ يَبْنُونَ عَلَى مَوْضِعٍ اخْتَفَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ وَصَلَ قَدَمُهُ الْمُبَارَكُ إِلَيْهِ، أَوْ تَعَبَّدَ فِيهِ، وَهَذَا لَيْسَ مِمَّا يُحْمَدُ فِي الشَّرِيعَةِ؛ لِجَرِّهِ إِلَى الْغُلُوِّ.

وَفِي الْعِرَاقِ مَوَاضِعُ كَثِيرَةٌ بَنَوْا عَلَيْهَا مَبَانِيَ، كَالْمَقَامِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّ الشَّيْخَ الكَيْلَانِيَّ تَعَبَّدَ فِيهِ، وَكَأَثَرِ الْكَفِّ الَّذِي زَعَمَ الشِّيعَةُ أَنَّهُ أَثَرُ كَفِّ الْإِمَامِ عَلِيٍّ[3]؛ لَمَّا وَضَعَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ فَأَثَّرَ فِيهَا، فَبَنَوْا عَلَيْهَا مَسْجِدًا، وكعدة أَمَاكِنَ زَعَمُوا أَنَّ الْخَضِرَ رُؤِيَ فِيهَا وَلَا أَصْلَ لَهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَسْتَوْعِبُهُ الْمُقَامُ، فَيَنْبَغِي

---

(١) انظر كتاب الإمام الألباني «تحذير الساجد» لا سيما منه (صـ١٢١) وما بعدها.

(٢) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢/ ١١٨-١١٩) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٦) وغيرهما، وصحّح سنده شيخ الاسلام في «التوسل والوسيلة» (صـ ٢٢٠). بتحقيق الشيخ الجليل ربيع المدخلي حفظه الله تعالى، وسيأتي لفظ الأثر قريبًا.

(٣) استعمال كلمة (إمام) في حق أمير المؤمنين تخصيصًا من بين الصحابة، من بدع الشيعة التي سرت إلى ألسنة وأقلام بعض أهل السنة، فالصحيح أن يعبر عنه بأمير المؤمنين، ونحو ذلك مما يستعمل في حق غيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

لِمَنْ يَدَّعِيْ الْإِسْلَامَ أَنْ يَتَجَنَّبَهَا، وَيَنْهَى عَنْ حُضُورِهَا، وَإِنْ رُمِيَ بِالْإِنْكَارِ، وَعَدَاوَةِ الأَشْرَارِ، وَكَيْدِ المَارِقِيْنَ الفُجَّارِ.

وَفِي الْمَسْأَلَةِ تَفْصِيلٌ لَا بَأْسَ بِذِكْرِهِ: قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ(١): أَمَّا مَقَامَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ -وَهِيَ الْأَمْكِنَةُ الَّتِي قَامُوا فِيهَا، أَوْ أَقَامُوا، أَوْ عَبَدُوا اللهَ سُبْحَانَهُ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوهَا مَسَاجِدَ- فَالَّذِي بَلَغَنِي فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ عَنِ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ:

أَحَدُهُمَا: النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ وَكَرَاهَتُهُ، وَأَنَّهُ لَا يُسْتَحَبُّ قَصْدُ بُقْعَةٍ لِلْعِبَادَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَصْدُهَا لِلعِبَادَةِ مِمَّا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ قَصَدَهَا لِلْعِبَادَةِ، كَمَا قَصَدَ الصَّلَاةَ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ(٢)، وَكَمَا كَانَ يَتَحَرَّى الصَّلَاةَ عِنْدَ الْأُسْطُوَانَةِ(٣)، وَكَمَا تَقَصَّدَ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ، وَيَقْصِدُ الصَّفَّ الْأَوَّلَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِالْيَسِيرِ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ(٤) أَنَّهُ كَانَ يَتَحَرَّى قَصْدَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي سَلَكَهَا النَّبِيُّ ﷺ، (وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ)(٥) سَلَكَهَا اتِّفَاقًا لَا قَصْدًا.

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٦) عَنِ الرَّجُلِ يَأْتِي هَذِهِ الْمَشَاهِدَ وَيَذْهَبُ إِلَيْهَا: تَرَى

---

(١) في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٤٢).

(٢) وذلك كما في حديث جابر عند مسلم (١٢١٨).

(٣) وذلك كما في البخاري (٥٠٢)، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه والأسطوانة: أي: السارية وهي بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الطاء بوزن (أُفْعُوَانة) على المشهور، والغالب أنها تكون من بناء، بخلاف العمود فإنه من حجر واحد. قاله الحافظ في «الفتح» الحديث (٥٠٢).

(٤) سيأتي.

(٥) في «الخطيب»: (وأن النبي سلكها اتفاقًا لا قصدًا).

(٦) في «الاقتضاء» قال سندي الخواتيمي: سألنا أبا عبد الله عن الرجل... الأثر.

قلت: وسندي هو: أبو بكر الخوتيمي البغدادي، سمع من أحمد مسائل صالحة، انظر: =

ذَلِكَ؟ قَالَ: أَمَّا عَلَى حَدِيثِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ[١] أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى يَتَّخِذَ ذَلِكَ مُصَلًّى، وَعَلَى مَا كَانَ يَفْعَلُهُ ابْنُ عُمَرَ[٢] يَتْبَعُ مَوَاضِعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَثَرَهُ، فَلَيْسَ بِذَلِكَ بَأْسٌ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْمَشَاهِدَ. إِلَّا أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَفْرَطُوا فِي هَذَا جِدًّا وَأَكْثَرُوا فِيهِ.

وَكَذَلِكَ نَقَلَ عَنْهُ أَحْمَدُ بْنُ الْقَاسِمِ[٣] أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَأْتِي هَذِهِ الْمَشَاهِدَ الَّتِي بِالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا يَذْهَبُ إِلَيْهَا، فَقَالَ: أَمَا عَلَى حَدِيثِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَهُ فَيُصَلِّي فِي بَيْتِهِ حَتَّى يَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، وَعَلَى مَا كَانَ يَفْعَلُ ابْنُ عُمَرَ كَانَ يَتْبَعُ مَوَاضِعَ سَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى أَنَّهُ رُؤِيَ يَصُبُّ فِي مَوْضِعٍ مَاءً، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَصُبُّ هُنَا مَاءً[٤]، قَالَ: أَمَّا عَلَى هَذَا فَلَا بَأْسَ.

= «طبقات الحنابلة» (١/ ١٧٠-١٧١).

(١) الذي صلى له النبي في بيته هو عِتْبَانَ بن مالك ﷺ، وذلك كما في البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣) عن عتبان بن مالك ﷺ، وانظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٥٥-٥٦).

(٢) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب ﷺ. وما أُثِرَ عنه من تتبع آثار النبي ﷺ مشهور ثابت في «صحيح البخاري» كما سيأتي. وأخرج ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٤٤) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٠) من طريق عاصم الأحول عمن حدثه قال: كان ابن عمر إذا رآه أحد ظن أن به شيئًا؛ من تتبعه آثار النبي ﷺ. وهذا سند -كما ترى- فيه مبهم.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات» أيضًا (٤/ ١٤٥) من طريق عبدالله بن المُؤَمَّلِ، عن عبدالله ابن أبي مليكة، عن عائشة ﷺ قالت: ما كان أحد يتبع آثار النبي ﷺ في منازله كما كان يتبعه ابن عمر، وسنده ضعيف؛ فعبدالله بن المُؤَمَّلِ المخزومي القرشي، ضعيف الحديث، انظر ترجمته في: «التهذيب»، ولكن انظر: ما سيأتي قريبًا في الصفحة التالية بإذن الله تعالى.

(٣) صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام، حدث عن الإمام أحمد بمسائل كثيرة، انظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٥٥-٥٦).

(٤) انظر: «السير» (٣/ ٢١٣).

قَالَ: وَرَخَّصَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَلَكِنْ قَدْ أَفْرَطَ النَّاسُ جِدًّا وَأَكْثَرُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى، فَذَكَرَ قَبْرَ الْحُسَيْنِ وَمَا يَفْعَلُ النَّاسُ عِنْدَهُ. رَوَاهُمَا الْخَلَّالُ فِي كِتَابِ «الْأَدَبِ».

فَقَدْ فَصَّلَ أَبُو عَبْدِاللهِ فِي الْمَشَاهِدِ، وَهِيَ الْأَمْكِنَةُ الَّتِي فِيهَا آثَارُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مَسَاجِدَ لَهُمْ، كمواضع بِالْمَدِينَةِ بَيْنَ الْقَلِيلِ الَّذِي لَا يَتَّخِذُونَهُ عِيدًا، أَوِ الْكَثِيرِ الَّذِي يَتَّخِذُونَهُ عِيدًا كَمَا تَقَدَّمَ. وَهَذَا التَّفْصِيلُ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْآثَارِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ. فَإِنَّهُ قَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[١] عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: رَأَيْتُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِاللهِ يَتَحَرَّى أَمَاكِنَ فِي الطَّرِيقِ وَيُصَلِّي[٢] فِيهَا، وَيُحَدِّثُ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يُصَلِّي فِيهَا، وَأَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي فِي تِلْكَ الْأَمْكِنَةِ، فَهَذَا كَمَا رَخَّصَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

وَأَمَّا كَرَاهَتُهُ فَرَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي «سُنَنِهِ» قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنْ عُمَرَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَهُ فِي حَجَّةٍ حَجَّهَا فَقَرَأَ بِنَا فِي الْفَجْرِ: بـ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[الفيل:١] وَ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾[قريش:١] فِي الثَّانِيَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ حَجَّتِهِ رَأَى النَّاسَ ابْتَدَرُوا الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: مَسْجِدٌ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ. فَقَالَ: هَكَذَا هَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَبْلَكُمْ، اتَّخَذُوا آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ بِيَعًا! مَنْ عَرَضَتْ لَهُ مِنْكُمُ الصَّلَاةُ فِيهِ فَلْيُصَلِّ، وَمَنْ لَمْ تَعْرُضْ لَهُ الصَّلَاةُ فَلْيَمْضِ»[٣].

فَقَدْ كَرِهَ عُمَرُ اتِّخَاذَ مُصَلَّى النَّبِيِّ ﷺ عِيدًا، وَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ إِنَّمَا هَلَكُوا بِمِثْلِ هَذَا، كَانُوا يَتَّبِعُونَ آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ وَيَتَّخِذُونَهَا كَنَائِسَ وَبِيَعًا.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ[٤] وَغَيْرُهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَمَرَ بِقَطْعِ الشَّجَرَةِ الَّتِي

---

(١) برقم (٤٨٣)

(٢) في «البخاري» فيصلي.

(٣) صحيح، تقدم تخريجه.

(٤) في «البدع والنهي عنها» (ص٤٢-٤٣).

بُويِعَ تَحْتَهَا النَّبِيُّ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَذْهَبُونَ تَحْتَهَا فَخَافَ عُمَرُ الْفِتْنَةَ عَلَيْهِمْ[1].

وَمَا ذَكَرَهُ عُمَرُ هُوَ الحَرِيُّ بِالْقَبُولِ، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ -غَيْرَ ابْنِهِ- وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ وَيُعَوَّلُ عَلَيْهِ.

٧٧- اتخاذ السُّرُجِ على القبور

(... السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ): اتِّخَاذُ السُّرُجِ عَلَى الْقُبُورِ.

دَلِيلُ حُرْمَةِ ذَلِكَ: مَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ، مِنْ لَعْنِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ. وَلَيْتَكَ رَأَيْتَ مَا يُوقَدُ فِي تُرَبِ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَنَحْوِهَا مِنَ الشُّمُوعِ، وَلَاسِيَّمَا فِي لَيَالِي رَمَضَانَ، وَاللَّيَالِي الْمُبَارَكَةِ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا!!

٧٨- اتخاذ القبور أعيادًا

(... الثَّامِنَةُ وَالسَّبْعُونَ): اتِّخَاذُهَا أعيادًا.

اعْلَمْ أَنَّ الْعِيدَ: اسْمٌ لِمَا يَعُودُ مِنَ الِاجْتِمَاعِ الْعَامِ، عَلَى وَجْهٍ مُعْتَادٍ، عَائِدًا مَا تَعُودُ السَّنَةُ، أَوْ يَعُودُ الْأُسْبُوعُ، أَوِ الشَّهْرُ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ[2]، فالعيد يَجْمَعُ أُمُورًا، منها: يَوْمٌ عَائِدٌ كَيَوْمِ الْفِطْرِ وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ، ومنها: اجْتِمَاعٌ فِيهِ، ومنها: أَعْمَالٌ

---

(١) حسن. وأخرجه ابن سعد (٢/ ١٠٠) وسنده عنده حسن وإلى هنا انتهى كلام شيخ الاسلام من "اقتضاء الصراط المستقيم"، وله كلام في هذا الموضوع في كتابه: "التوسل والوسيلة" انظر: (ص ٢١٩-٢٢٢).

(٢) ويسمى في مصر: (مولدًا)، وإن كان المنسوب إليه مجهول يوم مولده أو سنة مولده.

تَجْمَعُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ أَوِ الْعَادَاتِ[(١)]. وَقَدْ يَخْتَصُّ الْعِيدُ بِمَكَانٍ بِعَيْنِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مُطْلَقًا. هَؤُلَاءِ مُسْلِمُوْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، لِكُلِّ تُرْبَةٍ وَلِيٍّ يَوْم مَخْصُوصٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِلزِّيَارَةِ، كَزِيَارَةِ الْغَدِيرِ وَمَرَدَ الرَّأْسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ خُصَّ لَهُ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ: فالجمعة لِفُلَانٍ، وَالثُّلَاثَاءُ لِفُلَانٍ، وَهَكَذَا..... وَمِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِيَ الْمُبَارَكَةَ، كَلَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَأَيَّامِ الْأَعْيَادِ، وَلَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ[(٢)]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يُنْزِلِ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ.

٧٩- الذبح عند القبور

(... التَّاسِعَةُ وَالسَّبْعُونَ): الذَّبْحُ عِنْدَ الْقُبُورِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُخْبِرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ وَيَذْبَحُونَ لَهُ، أَيْ: أَنَّهُ أَخْلَصَ لِلهِ صَلَاتَهُ وَذَبِيحَتَهُ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَذْبَحُونَ لَهَا، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَتِهِمْ وَالِانْحِرَافِ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَالِانْقِيَادِ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ، وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلهِ تَعَالَى، فَمَنْ تَقَرَّبَ لِغَيْرِ اللهِ لِيَدْفَعَ عَنْهُ ضَرًا أَوْ يَجْلِبَ لَهُ خَيْرًا

---

(١) انظر: "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/ ٤٤١-٤٤٢).

(٢) لم يثبت في فضلها حديث واحد، وكل الأحاديث التي وردت في فضلها أو فضل الصلاة فيها ضعيفة لا يقوم عليها عمل، وإحياؤها بالصلاة والقيام من البدع الإبليسية التي تبناها الشيعة والصوفية، ومن اغترَّ بهم من عوام الناس. نعم صحح العلامة الألباني في "الصحيحة" (١١٤٤) حديث أن النبي ﷺ قال: "يطلع الله تبارك وتعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه، إلا لمشرك، أو مشاحن". وضعفه غيره.

انظر: "لطائف المعارف" (ص٢٦١)، و"إصلاح المساجد" للقاسمي (ص١٠٧).

تَعْظِيمًا لَهُ، مِنَ الْكُفْرِ الاعْتِقَادِيِّ وَالشِّرْكِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ.

وَسَبَبُ مَشْرُوعِيَّةِ التَّسْمِيَةِ تَخْصِيصُ مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، بِالْإِلَهِ الْحَقِّ الْمَعْبُودِ الْعَلَّامِ. فَإِذَا قَصَدَ بِالذَّبْحِ غَيْرَهُ كَانَ أَوْلَى بِالْمَنْعِ[١].

وَصَحَّ نَهْيُهُ ﷺ عَمَّنِ اسْتَأْذَنَهُ بِالذَّبْحِ (بِبُوَانَةَ)[٢] وَأَنَّهُ قَدْ نَذَرَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ ﷺ: «أَكَانَ فِيهَا صَنَمٌ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِ الْمُشْرِكِينَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ لَهُ: «فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ». أَخْرَجَ ذَلِكَ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»[٣].

وَهَذَا السَّائِلُ مُوَحِّدٌ مُقَرِّبٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ، لَكِنَّ الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ مَعْبُودٌ غَيْرُ اللهِ -وَقَدْ عُدِمَ-، أَوْ مَحَلٌّ لِاجْتِمَاعِهِمْ، يَصْلُحُ مَانِعًا. فَلَمَّا عَلِمَ ﷺ أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَجَازَهُ. وَلَوْ عَلِمَ شَيْئًا مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ لَمَنَعَهُ؛ صِيَانَةً لِحِمَى التَّوْحِيدِ، وَقَطْعًا لِذَرِيعَةِ الشِّرْكِ[٤].

وَصَحَّ أَيْضًا عَنْهُ ﷺ[٥] أَنَّهُ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، قَالُوا: كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يُجَاوِزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ. قَالَ: مَا كُنْتُ أُقَرِّبُ شَيْئًا لِأَحَدٍ دُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»[٦].

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط» (١/ ٤٤٠-٤٤١).

(٢) قال ابن الأثير: هي بضم الباء، وقيل بفتحها: هَضْبَة من وراء ينبع. اهـ «النهاية» مادة: (بون).

(٣) صحيح أخرجه أبو داود (٣٣١٣) وغيره، عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، وصححه شيخنا مقبل الوادعي في «الصحيح المسند» (١٨٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» عند الآية (١٦٣) من سورة الأنعام.

(٥) لم نره مرفوعًا من وجه صواب، كما سيأتي بيانه.

(٦) الحديث موقوف على سلمان رضي الله عنه، ولم يوجد مرفوعًا، إلا ما ذكره ابن القيم، كما في «فتح =

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: كَوْنُ الْمُقَرِّبِ دَخَلَ النَّارَ بِالسَّبَبِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ؛ تَخَلُّصًا مِنْ شَرِّهِمْ[1]، وَأَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا وَإِلَّا لَمْ يَقُلْ: «دَخَلَ

= المجيد» (١/ ٢٧٥) عن «الزهد» لأحمد وهو في «الزهد» بذلك السند الذي ذكره، لكنه موقوف غير مرفوع. وعليه فلعله يكون سبق قلم أو خطأ، في النسخة التي نقل منها ابن القيم رحمه الله، والله أعلم.

والموقوف أخرجه أحمد في «الزهد» (صـ٢٢)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، عن طارق بن شهاب عن سلمان، موقوفًا، وسنده صحيح، وله حكم الرفع.

(١) هذه من الفوائد التي استنبطها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «كتابه التوحيد» من هذا الحديث، ولكن تعقب عليه العلماء في هذا الاستنباط، منهم: الشيخ العثيمين، حيث قال في «القول المفيد» (١/ ٢٢٨-٢٢٩):

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله؛ تخلصًا من شرهم:

هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قولهم قرب ولو ذبابًا يقتضي أنه فعله قاصدًا التقرب، أما لو فعله؛ تخلصًا من شرهم، فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب، ولهذا قال الفقهاء: لو أكره على طلاق امرأته فطلق تبعًا لقوله: أي: طلق ناويًا الطلاق فإن الطلاق يقع، وإن طلق؛ دفعًا للإكراه لم يقع، وهذا حق لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**».

وظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب؛ لأن الأصل أن فعلًا بُنِيَ على طلب أن يكون موافقًا لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف رحمه الله، أي: أنه لو فعله بقصد التخلص، ولم ينو التقرب لهذا الصنم، لا يكفر؛ لعموم قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ [النحل:١٠٦].

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر؛ تخلصًا، مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضًا: أنه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول: إذا أكره على القول لم يكفر، وإذا أكره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث حجيتها، وفيها نظر من حيث الدلالة؛ لما سبق أن الفعل المبني على طلب يحال على هذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب؛ تخلصًا من شرهم، فإن لدينا نصًا محكمًا في الموضوع،=

النَّارَ». وَفِيهِ مَا يَنْبَغِي الِاهْتِمَامُ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، الَّتِي هِيَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ وَالرُّكْنُ الْأَكْبَرُ. فَتَأَمَّلْ فِي ذَلِكَ وَانْظُرْ إِلَى فُؤَادِكَ فِي جَمِيعِ مَا قَالُوا، وَأَلْقِ سَمْعَكَ لِمَا ذَكَرُوهُ، وَانْظُرِ الْحَقَّ فَإِنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ وَالْبَاطِلَ لَجْلَجٌ. فَبِالنَّظَرِ التَّامِّ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ تَقَرُّبِهِمْ لِأَوْثَانِهِمْ لِتَقْرِيبِهِمْ إِلَى اللهِ لِكَوْنِهِمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، وَشَفَاعَتِهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ، أَوْ مَلَائِكَةُ اللهِ، أَوْ أَوْلِيَاءُ اللهِ، يَتَبَيَّنُ لَكَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ الْآنَ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

٨٠- التبرك بآثار المعظمين

(... الثَّمَانُونَ): التَّبَرُّكُ بِآثَارِ الْمُعَظَّمِينَ، كَدَارِ النَّدْوَةِ، وَافْتِخَارِ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهِ بِذَلِكَ. كَمَا قِيلَ لِحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ: بِعْتَ مَكْرُمَةَ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: ذَهَبَتِ الْمَكَارِمُ إِلَّا التَّقْوَى[1].

هَذِهِ الْخَصْلَةُ قَدِ امْتَدَّتْ عُرُوقُ ضَلَالِهَا فِي أَوْدِيَةِ قُلُوبِ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَزَادُوا فِي الْغُلُوِّ بِهَا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ جَاهِلِيَّةُ الْعَرَبِ وَالْكِتَابِيِّينَ، وَلَا بِدْعَ مِنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ الْقُرَشِيِّ الْأَسَدِيِّ إِذَا مَا رَدَّ عَلَى مَنْ قَالَ لَهُ: بِعْتَ مَكْرُمَةَ قُرَيْشٍ -وَقَدْ بَاعَهَا مِنْ مُعَاوِيَةَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ-: ذَهَبَتِ الْمَكَارِمُ إِلَّا التَّقْوَى.

كَيْفَ لَا وَقَدْ كَانَ عَاقِلًا سَرِيًّا[2] فَاضِلًا تَقِيًّا سَيِّدًا بِمَالِهِ غَنِيًّا، أَعْتَقَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ رَقَبَةٍ، وَحَمَلَ عَلَى مِائَةِ بَعِيرٍ، وَحَجَّ فِي الْإِسْلَامِ وَمَعَهُ مِائَةُ بَدَنَةٍ قَدْ

= وهو قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [النحل:١٠٦]، ولم يقل بالقول، فما دام عندنا نص قرآني صريح فإنه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه؛ فإنها تحمل على النص المحكم. اهـ

(١) صحيح. أخرجه الطبراني في "الكبير" (٣/ ١٨٦-١٨٧) وأبو نعيم في "المعرفة" (٢/ ٧٠٢) و ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٥/ ١١٨-١١٩).

(٢) سقط من "الخطيب".

جَلَّلَهَا بِالْحِبَرَةِ وَكَفَّهَا عَنْ أَعْجَازِهَا وَأَهْدَاهَا، وَوَقَفَ بِمِائَةِ وَصِيفٍ بِعَرَفَةَ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَطْوَاقُ الْفِضَّةِ مَنْقُوشٌ فِيهَا: عُتَقَاءُ اللهِ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ. وَأَهْدَى أَلْفَ شَاةٍ. وَهُوَ الَّذِي عَاشَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سِتِّينَ سَنَةً، وَفِي الْإِسْلَامِ سِتِّينَ سَنَةً، وَوُلِدَ فِي الْكَعْبَةِ[١].

٨١-٨٤- الفخر بالأحساب والاستسقاء بالأنواء والطعن في الأنساب والنياحة

(... الْحَادِيَة وَالثَّمَانُونَ): الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ.

(... الثَّانِيَةُ وَالثَّمَانُونَ): الِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ.

(... الثَّالِثَةُ وَالثَّمَانُونَ): الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ.

(... الرَّابِعَةُ وَالثَّمَانُونَ): النِّيَاحَةُ.

أَقُولُ: هَذِهِ الْمَسَائِلُ الْأَرْبَعُ دَلِيلُ بُطْلَانِهَا حَدِيثٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ «الْبُخَارِيُّ»[٢] «وَمُسْلِمٌ»[٣] وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَدَّثَهُ قَالَ: **«أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، (وَالنَّاحِبَةُ)[٤] -أَوْ قَالَ: النَّائِحَةُ[٥]- إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ**

---

(١) انظر هذه الأمور في ترجمته من المصادر السابقة وغيرها.

(٢) لم يخرجه البخاري من حديث أبي مالك رضي الله عنه، وإنما أخرجه (٣٨٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**خِلَالٌ من خلال الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة**» ونسي الثالثة. قال سفيان: يقولون: إنها «**الاستسقاء بالأنواء**».

(٣) مسلم (٩٣٤).

(٤) في مسلم: «**النياحة**».

(٥) في مسلم: «**وقال: والنائحة**».

وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ».

الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ: افْتِخَارُهُمْ بِمَفَاخِرِ الْآبَاءِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ: إِدْخَالُهُمُ الْعَيْبَ فِي أَنْسَابِ النَّاسِ؛ تَحْقِيرًا لِآبَائِهِمْ وَتَفْضِيلًا لآباء أَنْفُسِهِمْ عَلَى آبَاءِ غَيْرِهِمْ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ: اعْتِقَادُهُمْ نُزُولَ الْمَطَرِ بِسُقُوطِ نَجْمٍ فِي الْمَغْرِبِ مَعَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ آخَرَ يُقَابِلُهُ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. وَهَذَا مُفَصَّلٌ فِي كُتُبِ الْأَنْوَاءِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ فِي النَّائِحَةِ: «**وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ**» أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُجَازِيهَا بِلِبَاسٍ مِنْ قَطِرَانٍ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَلْبَسُ الثِّيَابَ السُّودَ. وَقَوْلُهُ: «**دِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**» يَعْنِي: يُسَلَّطُ عَلَى أَعْضَائِهَا الْجَرَبَ وَالْحَكَّةَ، بِحَيْثُ يُغَطِّي بَدَنَهَا تَغْطِيَةً لِلدِّرْعِ وَهُوَ: الْقَمِيصُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَخْرُجُ بِكَلِمَاتِهَا الْمُحْرِقَةِ، قُلُوبَ ذَوِي الْمُصِيبَاتِ. فَهَذَا الْحَدِيثُ دَلَّ عَلَى بُطْلَانِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الرَّدِيئَةِ. وَوَرِثَتْهُمُ الْيَوْمَ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَجَاوَزُوا فِيهَا أَسْلَافَهُمْ وَزَادُوا فِي الطُّنْبُورِ نَغَمَاتٍ، فَتَرَاهُمْ يَفْتَخِرُونَ بِمَزَايَا آبَائِهِمْ وَهُمْ بِمَرَاحِلَ عَنْهُمْ، فَهَذَا يَقُولُ: كَانَ جَدِّي الشَّيْخُ الْفُلَانِيُّ. وَهَذَا يَقُولُ: جَدِّي الْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، فَهَذَا يَقُولُ: إِنَّ آبَاءَ فُلَانٍ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ، وذاك يقول: إِنَّ آبَاءَ فُلَانٍ لَمْ يَكُونُوا مِنْ ذَوِيَ الْأَحْسَابِ الْبَاهِرَةِ.

وَكَذَلِكَ الِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ مَا كَانَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ فِعْلِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

وَهَكَذَا النَّوْحُ عَلَى الْأَمْوَاتِ فَقَدِ اتَّخَذَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَسَبَبُ الْوُصُولِ إِلَى مَرْضَاةِ ذِي الْجَلَالِ، لَاسِيَمَا مَنِ اتَّخَذَ الْمَآتِمَ الْحُسَيْنِيَّةَ فِي كُلِّ

عَامٍ، فَهُنَاكَ مِنَ الْبِدَعِ مَا تَكِلُّ عَنْ نَقْلِهِ أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ، وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ يُورِدُونَهُ مَوَارِدَ الْعَطَبِ وَالْمَهَالِكِ! وَالْأَمْرُ لِلهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

٨٥- تعيير الرجل بفعل أمه وأبيه

(الْخَامِسَةُ وَالثَّمَانُونَ): تَعْيِيرُ الرَّجُلِ بِفِعْلِ غَيْرِهِ. لَا سِيَّمَا أَبُوهُ وَأُمُّهُ فَخَالَفَهُمْ ﷺ وَقَالَ: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ».

وَالْحَدِيثُ فِي "صَحِيحِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ"[1] فِي (بَابِ: الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ). لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨و١١٦]. وَهَذَا الْبَابُ فِي "كِتَابِ الْإِيمَانِ" مِنْ "صَحِيحِهِ"، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ، عَنِ الْمَعْرُورِ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَس، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ». وَقَدْ أَطْنَبَ شُرَّاحُ الْحَدِيثِ فِي شَرْحِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِقْصَائِهِ.

وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ أَنَّ تَعْيِيرَ الرَّجُلِ بِفِعْلِ غَيْرِهِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ كَامِلِ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ. فَإِنَّ أَبَا ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَبْلَ بُلُوغِهِ الْمَرْتَبَةَ الْقُصْوَى مِنَ

---

(١) برقم (٣٠) وهو فيه أيضًا برقم (٢٥٤٥)، وأخرجه أيضًا مسلم (١٦٦١)، من حديث أبي ذر ﷺ.

الْمَعْرِفَةِ تَسَابَّ هُوَ وَبِلَالٌ الْحَبَشِيُّ الْمُؤَذِّنُ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ السَّوْدَاءِ. فَلَمَّا شَكَا بِلَالٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «شَتَمْتَ بِلَالًا، وَعَيَّرْتَهُ بِسَوَادِ أُمِّهِ؟! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «حَسِبْتَ أَنَّهُ بَقِيَ فِيكَ شَيْءٌ مِنْ كِبْرِ الْجَاهِلِيَّةِ» فَأَلْقَى أَبُو ذَرٍّ خَدَّهُ عَلَى التُّرَابِ، ثُمَّ قَالَ: لَا أَرْفَعُ خَدِّي حَتَّى يَطَأَ بِلَالٌ خَدِّي بِقَدَمِهِ[1].

وَالنَّاسُ الْيَوْمَ -وَالْأَمْرُ لِلَّهِ- قَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ خِصَالُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَرَاهُمْ يُعَيِّرُونَ أَهْلَ الْبَلَدِ كُلَّهِمْ بِمَا صَدَرَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَأَيْنَ مِنْ ذَلِكَ خِصَالُ الْجَاهِلِيَّةِ؟

٨٦- الافتخار بولاية البيت

(... السَّادِسَةُ وَالثَّمَانُونَ): الافْتِخَارُ بِوِلَايَةِ الْبَيْتِ. فَذَمَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

وَهِيَ بِتَمَامِهَا قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٧].

وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا فِي التَّفْسِيرِ: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. تَعْلِيلٌ

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ! وله أصل في البخاري (٢٣٠)، ومسلم (١٦٦١)، عن المعرور بن سويد، قال: لقيت أبا ذرٍّ بالرَّبذة، وعليه حلَّةٌ، وعلى غلامه حلَّةٌ، فسألته عن ذلك، فقال: إنِّي سابيت رجلًا، فعيَّرته بأمِّه، فقال لي النَّبيُّ ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، أعيَّرته بأمِّه؟! إنَّك امرؤٌ فيك جاهليَّةٌ؛ إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم».

فائدة: قال الحافظ رحمه الله في «الفتح» عند حديث رقم (٣٠): وقيل: إن الرجل المذكور هو بلال المؤذن، مولى أبي بكر، وروى ذلك الوليد بن مسلم منقطعًا. اهـ

وقال في شرح حديث (٦٠٥٠): المذكور هو بلال المؤذن، وكان اسم أمه حمامة بفتح المهملة وتخفيف الميم.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[المؤمنون: ٦٥]. أَيْ: دَعُوا الصُّرَاخَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُكُمْ مِنَّا وَلَا يَنْفَعُكُمْ عِنْدَنَا، فَقَدِ ارْتَكَبْتُمْ أَمْرًا عَظِيمًا وَإِثْمًا كَبِيرًا وَهُوَ التَّكْذِيبُ بِالْآيَاتِ، فَلَا يَدْفَعُهُ الصُّرَاخُ، فَكُنْتُمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهَا: ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أَيْ: تُعْرِضُونَ عَنْ سَمَاعِهَا أَشَدَّ الْإِعْرَاضِ، فَضْلًا عَنْ تَصْدِيقِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا. وَالنُّكُوصُ: الرُّجُوعُ. وَالأَعْقَابُ: جَمْعُ عَقِبٍ وَهُوَ مُؤَخَّرُ الرِّجْلِ. وَرُجُوعُ الشَّخْصِ عَلَى عَقِبِهِ: رُجُوعُهُ فِي طَرِيقِهِ الْأَوَّلِ كَمَا يُقَالُ: رَجَعَ عَوْدَهُ عَلَى بَدْئِهِ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالْبَاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ، وَسُوِّغَ بِهَذَا الْإِضْمَارِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَجْرِ ذِكْرُ اشْتِهَار اسْتِكْبَارِهِمْ وَافْتِخَارِهِمْ بِأَنَّهُمْ خُدَّامُ الْبَيْتِ وَقُوَّامُهُ» ﴿سَٰمِرًا﴾ أَيْ: تَسْمُرُوْنَ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ وَالطَّعْنِ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ يَسْمُرُوْنَ وَكَانَتْ عَامَّةُ سَمَرِهِمْ ذِكْرُ الْقُرْآنِ وَتَسْمِيَتُهُ سِحْرًا وَشِعْرًا وَ ﴿تَهْجُرُونَ﴾ مِنَ الْهَجْرِ -بِفَتْحٍ فَسُكُون- بِمَعْنَى الْقَطْعِ وَالتَّرْكِ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: تَارِكِينَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ أَوِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى تَقْدِيرِ عَوْدِ الضَمِير ﴿بِهِ﴾ لَهُ، وَجَاءَ الْهَجْرُ بِمَعْنَى الْهَذَيَانِ، وَجَوَّزَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ، أَيْ: تهذون فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ أَوِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ أَصْحَابِهِ أَوْ مَا يَعُمُّ جَمِيعَ ذَلِكَ، وَيُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْهُجْرِ -بِضَمٍّ فَسُكُون- وَهُوَ الْكَلَامُ الْقَبِيحُ[1]، فَأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾[المؤمنون:٦٨]. لِيَعْلَمُوا -بِمَا فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ- أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ؛ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: بَلْ جَاءَهُمْ... إلخ [المؤمنون:٦٨].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ التَّكَبُّرَ؛ بِسَبَبِ الرِّيَاسَةِ عَلَى الْمَوَاضِعِ الْمُقَدَّسَةِ، كَمَا هُوَ الْيَوْمَ حَالُ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الشَّرَفَ؛ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

---

(١) انظر عن هذه المعاني مع بيان بعض النصوص الواردة فيها «النهاية» لابن الأثير مادة: (هجر).

فَمِنْهُمْ مَنِ ادَّعَى الشَّرَفَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ بِسَبَبِ رِيَاسَتِهِ عَلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنِ ادَّعَاهُ؛ بِسَبَبِ الرِّيَاسَةِ فِي الْمَشَاهِدِ أَوْ مَقَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ انْتِسَابَهُمْ إِلَى عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ(١) فِي بَغْدَادَ يَدَّعُونَ الشَّرَفَ؛ بِسَبَبِ رِيَاسَتِهِمْ عَلَى قَبْرِ عَبْدِ الْقَادِرِ، وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَى النُّذُورِ وَالصَّدَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ وَالْقَرَابِيْنِ الشِّرْكِيَّةِ، الَّتِي يتعبدها جَهَلَةُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْهُنُودِ وَالْأَكْرَادِ وَنَحْوِهِمْ، وَهُمْ(٢) أَفْسَقُ خَلْقِ اللهِ وَأَدْنَؤُهُمْ نَفْسًا وَأَرْذَلُ خَلْقِ اللهِ مَسْلَكًا، فَمَا يُفِيدُهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ شَيْئًا، وَمَا يُنْجِيهِمْ مِنْ مَقْتِ اللهِ وَعَذَابِهِ، وَإِنْ ظَنَّ بِهِمُ الْعَوَامُ مَا ظَنُّوا، فَهُمْ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ أَحْقَرُ مِنَ الذَّرِّ، وَأَبْعَدُهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٨٧- الافتخار بكونهم من ذرية الأنبياء

(... السَّابِعَةُ وَالثَّمَانُونَ): الافْتِخَارُ بِكَوْنِهِمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- . فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾

﴿ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ [البقرة: ١٣٤-١٤١].

وَتَفْسِيرُهَا: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ الْإِشَارَةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَأَوْلَادِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ... إلخ [البقرة: ١٣٠]. و(الْأُمَّةُ) أَتَتْ لِمَعَانٍ(٣)،

---

(١) هو: عبد القادر بن أبي صالح عبدالله بن جيلي الجيلاني الحنبلي الزاهد، توفي سنة (٥٦١)هـ وانظر: «السير» (٢٠/ ٤٣٩-٤٥١) و«تاريخ الإسلام» وفيات (٥٦١-٥٧٠) (ص٨٦).

(٢) أي: سدنة المشاهد والقبور.

(٣) لها أربعة معانٍ.

وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْجَمَاعَةُ، مِنْ أَمَّ بِمَعْنَى: قَصَدَ، وَسُمِّيتُ كُلُّ جَمَاعَةٍ يَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ مَا -إِمَّا دِينٌ وَاحِدٌ أَوْ زَمَانٌ وَاحِدٌ أَوْ مَكَانٌ- بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ يَؤُمُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقْصِدُهُ.

وَالْخُلُوُّ: الْمُضِيُّ وَأَصْلُهُ الِانْفِرَادُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ وَالْمَعْنَى: أَنَّ انْتِسَابَكُمْ إِلَيْهِمْ لَا يُوجِبُ انْتِفَاعَكُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّمَا تَنْتَفِعُونَ بِمُوَافَقَتِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالنَّبِيِّ الْمُتَّقُونَ؛ فَكُونُوا بِسَبِيلٍ مِنْ ذَلِكَ، فَانْظُرُوا أَنْ لَا يَلْقَانِي النَّاسُ يَحْمِلُونَ الْأَعْمَالَ، وَتَلْقَوْنِي بِالدُّنْيَا فَأَصُدُّ عَنْكُمْ بِوَجْهِي**»[1]. وَهَذَا الْحَدِيثُ بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: لَا تُؤَاخَذُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ كَمَا لَا تُثَابُونَ بِحَسَنَاتِهِمْ، وَهَذِهِ الْخَصْلَةُ مَوْجُودَةٌ الْيَوْمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَأْسُ مَالِهِمُ الافْتِخَارُ بِالْآبَاءِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْكَيْلَانِي[2]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ[3]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَنَا بَكْرِيٌّ[4]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَنَا

---

(١) معلق مرسل ضعيف الإسناد. أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٦٧٥)، رقم (٣٦٦٠)، ولم يعزه السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٢١) إلى سواه وهو من طريق معلق من طريق أبي الحويرث عن الحكم بن ميناء أن رسول الله قال: يا معشر قريش... فذكره. وأبو الحويرث هو عبد الرحمن بن معاوية ضعيف الحديث والحكم بن ميناء، تابعي صدوق.

(٢) هو الجيلاني المشهور، وجيلان هي بلاد متفرقة وراء طبرستان، ويقال لها: كيل، وكيلان، والنسبة إليها جيلي، وجيلاني، وكيلاني اهـ انظر: "الأنساب" للسمعاني.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن يحيي بن حزام، أحد الأئمة العباد الزهاد، توفي في جمادى الأولى سنة (٥٧٨)هـ انظر ترجمته في "السير" (٢١/ ٧٧) و"الطبقات الكبرى" للسبكي (٦/ ٢٣).

(٤) نسبة إلى أبي بكر عبدالله بن عثمان ﷺ.

عُمَرِيٌّ[١]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَنَا عَلَوِيٌّ[٢]، أَوْ حَسَنِيٌّ[٣]، أَوْ حُسَيْنِيٌّ[٤]، وَلَا فَضِيلَةَ لَهُمْ وَلَا تَقْوَى، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩] وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِفَاطِمَةَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[٥].

وَمَا قَصدُ أُولَئِكَ الْمُفْتَخِرِيْنَ بِآبَائِهِمْ، وَهُمْ عَارُوْنَ عَنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ، إِلَّا أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَفِي الْمَثَلِ: (كُنْ عِصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا).

إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَأَنَذَا ... لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

وَلِلَّهِ دَرُّ مَنْ قَالَ (يَرُدُّ) عَلَى الْمُفْتَخِرِ بِمِثْلِ ذَلِكَ:

أَقُولُ لِمَنْ غَدَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ... يُبَاهِيْنَا بِأَسْلَافٍ عِظَامِ

أَتَقْنَعُ بِالْعِظَامِ وَأَنْتَ تَدْرِي ... بِأَنَّ الْكَلْبَ يَقْنَعُ بِالْعِظَامِ

وَقَالَ آخَرُ:

وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ وَإِنَّمَا ... فَخَارُ الَّذِي يَبْغِي الْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

---

(١) نسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) نسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. (٣) نسبة إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٤) نسبة إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤)، من حديث أبي هريرة مطولاً، وفيه: «**يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا**»، ولفظ مسلم: «**يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لك من الله شيئًا**».

٨٨- الافتخار بالصنائع

(الثَّامِنَةُ وَالثَّمَانُونَ): الافْتِخَارُ بِالصَّنَائِعِ، كَمَا افْتَخَرَ أَهْلُ الرحلتين عَلَى أَهْلِ الْحَرْثِ.

يُرِيدُ بِالرِّحْلَتَيْنِ: رِحْلَةَ الشِّتَاءِ، إِلَى الْيَمَنِ، وَرِحْلَةَ الصَّيْفِ، إِلَى الشَّامِ. وَهِيَ عَادَةٌ كَانَتْ لِقُرَيْشٍ، كَمَا ذُكِرَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الإِيْلَافِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلتَّاجِرِ أَنْ يَفْتَخِرَ بِتِجَارَتِهِ عَلَى أَهْلِ الْحَرْثِ، وَلَا أَهْلُ كُلِّ حِرْفَةٍ عَلَى الْمُحْتَرِفِيْنَ بِحِرْفَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَكَاسِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَطَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، لِيُتَوَصَّلَ بِذَلِكَ إِلَى النَّجَاةِ الْأَبَدِيَّةِ وَهِيَ مَدَارُ الْفَخْرِ. وَأَمَّا مَا سِوَى ذَلِكَ فَكُلُّهُ ظِلٌّ زَائِلٌ وَنَعِيمٌ غَيْرُ مُقِيمٍ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَفْخَرَ بِزَخَارِفِ الدُّنْيَا الدَّنِيئَةِ، وَلَا يُعْلَمُ مَتَى يُفَارِقُهَا.

نَسْأَلُهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يُرْضِيْهِ.

٨٩- عظمة الدنيا في قلوبهم

(التَّاسِعَةُ والثمانون): عَظَمَةُ الدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:٣١].

أَيْ: مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ مُرَاعَاةُ الدُّنْيَا وَعَظَمَتُهَا فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا حَكَى[1] اللهُ عَنْهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۞ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا

---

[1] انظر ما سبق تحت مسألة: (٢٥).

بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢]. وَمَوْضِعُ الاِسْتِشْهَادِ فِيهَا قَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] الْمُرَادُ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ مَكَّةُ وَالطَّائِفُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ[1]: الَّذِي مِنْ مَكَّةَ: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ، وَالَّذِي مِنَ الطَّائِفِ: حَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ الثَّقَفِيُّ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا كَانَ عَظِيمًا ذَا جَاهٍ وَمَالٍ، وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ يُسَمَّى: رَيْحَانَةَ قُرَيْشٍ. وَكَانَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا؛ لَنَزَلَ عَلَيَّ، أَوْ عَلَى أَبِي مَسْعُودٍ، يَعْنِي: عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ وَكَانَ يُكْنَى بِذَلِكَ[2].

وَهَذَا بَابٌ آخَرُ مِنْ إِنْكَارِهِمْ لِلنُّبُوَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَوَّلًا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ بَشَرًا، ثُمَّ لَمَّا بُكِتُوا بِتَكْرِيرِ الْحُجَجِ، وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ تَصَوُّرُ رَوَاجٍ لِذَلِكَ جَاءُوا بِالْإِنْكَارِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، فَحَكَمُوا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ أَحَدَ هَذَيْنِ.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الزمر:٢٧] ذِكْرٌ لَهُ عَلَى وَجْهِ الاسْتِهَانَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ تَسْلِيمًا، بَلْ إِنْكَارًا، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَذَا الْكَذِبُ الَّذِي يَدَّعِيهِ لَوْ كَانَ حَقًّا لَكَانَ الْحَقِيقُ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ، وَهَذَا مِنْهُمْ لِجَهْلِهِمْ بِأَنَّ رُتْبَةَ الرِّسَالَةِ إِنَّمَا تَسْتَدْعِي عَظِيمَ النَّفْسِ؛ بِالتَّخَلِّي عَنِ الرَّذَائِلِ الدَّنِيَّةِ، وَالتَّحَلِّي بِالْكَمَالَاتِ وَالْفَضَائِلِ الْقُدْسِيَّةِ، دُونَ التَّزَخْرُفِ بِالزَّخَارِفِ الدُّنْيَوِيَّةِ. فَأَنْكَرَ سُبْحَانَهُ

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري (٢٠/ ٥٨٠-٥٨١) من طريق العوفيين، وعزاه السيوطي في "الدر" (١٣/ ٢٠١) إلى: ابن أبي حاتم وابن مردويه. قلت: العوفيون جميعهم ضعفاء، وفيهم من هو متروك الحديث، أَبَنْتُ ذلك في كتابي: "التيسير لمعرفة المشهور من أسانيد وكتب التفسير" (صـ٧٥-٧٦).

(٢) انظر: "المصدرين السابقين".

عَلَيْهِمْ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢] وَفِيهِ تَجْهِيلٌ وَتَعْجِيبٌ مِنْ تَحَكُّمِهِمْ بِنُزُولِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى مَنْ أَرَادُوا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢] قِسْمَةً تَقْتَضِيهَا مَشِيئَتُنَا المَبْنِيَّةُ عَلَى الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ وَلَمْ نُفَوِّضْ أَمْرَهَا إِلَيْهِمْ؛ عِلْمًا مِنَّا بِعَجْزِهِمْ عَنْ تَدْبِيرِهَا بِالْكُلِّيَّةِ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الزخرف:٣٢] فِي الرِّزْقِ وَسَائِرِ مَبَادِي الْمَعَاشِ. ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف:٣٢] مُتَفَاوِتَةً بِحَسَبِ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، فَمِنْ ضَعِيفٍ وَقَوِيٍّ وَغَنِيٍّ وَفَقِيرٍ وَخَادِمٍ وَمَخْدُوْمٍ وَحَاكِمٍ وَمَحْكُوْمٍ. ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢] لِيَسْتَعْمِلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي مَصَالِحِهِمْ وَيَسْتَخْدِمُوْهُمْ فِي مِهَنِهِمْ وَيَسْخِّرُوْهُمْ فِي أَشْغَالِهِمْ؛ حَتَّى يَتَعَايَشُوْا وَيَتَرَافَدُوا وَيَصِلُوا إِلَى مَرَافِقِهِمْ، لَا لِكَمَالٍ فِي الْمُوَسَّعِ عَلَيْهِ، وَلَا لِنَقْصٍ فِي الْمُقْتَرِ عَلَيْهِ، وَلَوْ فَرَضْنَا ذَلِكَ إِلَى تَدْبِيرِهِمْ لَضَاعُوا وَهَلَكُوا، فَإِذَا كَانُوا فِي تَدْبِيرِ خُوَيْصَةِ أَمْرِهِمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَهُوَ عَلَى طَرَفِ التَّمَامِ بِهَذِهِ الْحَالَةِ، فَمَا ظَنُّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَدْبِيرِ أَنْفُسِهِمْ، وَفِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الدِّينِ، وَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ مَنَاطِ العَيُّوقِ، وَمِنْ أَيْنَ لَهُمُ الْبَحْثُ عَنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَالتَّخَيُّرُ لَهَا مَنْ يَصْلُحُ لَهَا وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا؟!

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ ... إلخ [الزخرف:٣٢] مَا يَزِيدُ فِي[1] الانْكِبَابِ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا، وَيُعِينُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

فَـــاعْتَبِرْ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ تَلْقَـــهُ حَقًّـــا وَبِـــالْحَقِّ نَـــزَل[2]

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢] أَي: النُّبُوَّةُ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ

---

(١) كذا في الأصل، وكأنه حصل سقط وتتميمه: (ما يزيد في عدم الانكباب على الدنيا).

(٢) هذا البيت لابن الوردي في "لاميته" المشهورة.

سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَهُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، فالعظيم مَنْ رُزِقَ تِلْكَ الرَّحْمَةَ دُونَ ذَلِكَ الْحُطَامِ الدَّنِيءِ الْفَانِي. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي هَذِهِ الْخَصْلَةِ؛ فَتَرَاهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْعِلْمَ إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ فَقِيرَ الْحَالِ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْغَنِيِّ، وَلِلَّهِ دَرُّ مَنْ قَالَ[1]:

رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا ... لِ وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ

٩٠- ازدراء الفقراء

(... التِّسْعُونَ): ازْدِرَاءُ الْفُقَرَاءِ. فَأَنْزَلَ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

أَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ [الأنعام: ٥٢]. وَبَيَانُ مَعْنَاهَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهَا وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الأنعام:٥١-٥٢]. فَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِنْذَارِ الْمَذْكُورِينَ؛ لَعَلَّهُمْ يَنْتَظِمُونَ فِي سِلْكِ الْمُتَّقِينَ، نُهِيَ عَنْ كَوْنِ ذَلِكَ بِحَيْثُ يُؤَدِّي إِلَى طَرْدِهِمْ، وَيُفْهَمُ مِنْ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْآيَتَيْنِ نَزَلَتَا مَعًا، وَلَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنَ الْبَعْضِ الْآخَرِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ صُهَيْبٌ وَعَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَخَبَّابٌ وَنَحْوُهُمْ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، رَضِيتَ هَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ، أَهَؤُلَاءِ

---

[1] ينسب إلى حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ.

مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟! أَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا لِهَؤُلَاءِ؟! اطْرُدْهُمْ عَنْكَ، فَلَعَلَّكَ إِنْ طَرَدتَهُمْ أَنَّ نَتَّبِعَكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمُ الْقُرْآنَ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ﴾ [الأنعام:٥١] -إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ-: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢][1] وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ وَغَيْرُهُمْ عَنْ خَبَّابٍ قَالَ: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فَوَجَدَا النَّبِيَّ ﷺ قَاعِدًا مَعَ بِلَالٍ وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ فِي أُنَاسٍ ضُعَفَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَهُ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوَا بِهِ فَقَالُوا: نُحِبُّ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا الْعَرَبُ بِهِ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحِي أَنْ تَرَانَا قُعُودًا مَعَ هَؤُلَاءِ الأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنَّا، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ بِذَلِكَ كِتَابًا. فَدَعَا بِالصَّحِيفَةِ وَدَعَا عَلِيًّا؛ لِيَكْتُبَ -وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ- إِذْ نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ولا تطرد الذين﴾ ... إلخ. ثُمَّ دَعَانَا فَأَتَيْنَاهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]. فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَهُ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

---

[1] أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠)، وابن جرير في "تفسيره" (٩/ ٢٥٨)، والطبراني (١٠٥٢٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩٩)، وغيرهم من طريق أشعث، عن كُرْدُوس الثعلبي، عن ابن مسعود به، وأشعث هو: ابن سوار الكندي، ضعيف، وكردوس هو: ابن عباس الثعلبي، روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات"، ويغني عنه ما أخرجه مسلم (٢٤١٣)، عن سعد ولفظه:

فِيَّ نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] قال: نزلت في ستَّةٍ: أنا، وابن مسعودٍ، منهم، وكان المشركون قالوا له: تدني هؤلاء.

عن سعدٍ قال كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ ستَّة نفرٍ، فقال المشركون للنَّبيِّ ﷺ: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا، وابن مسعودٍ، ورجلٌ من هذيلٍ، وبلالٌ، ورجلان لست أسمِّيهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله عزَّوجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

وذكرته في شرحي على "مسائل الجاهلية" تحت المسألة رقم (٢٤) وانظر التعليق التالي.

يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْعُدُ مَعَنَا فَإِذَا بَلَغَ السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ[1].

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَغَيْرُهُ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: مَشَى عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ وَقُرْظَةُ بْنُ عَبْدِ عَمْرِو بْنِ نَوْفَلٍ وَالْحَارِثُ ابْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ وَمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ فِي أَشْرَافِ الْكُفَّارِ مِنْ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّ ابْنَ أَخِيكَ طَرَدَ عَنَّا هَؤُلَاءِ الْأَعْبُدَ وَالْحُلَفَاءَ، كَانَ أَعْظَمَ لَهُ فِي صُدُورِنَا، وَأَطْوَعَ لَهُ عِنْدَنَا، وَأَدْنَى لِاتِّبَاعِنَا إِيَّاهُ وَتَصْدِيقِهِ.

فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُوطَالِبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَوْ فَعَلْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ حَتَّى نَنْظُرَ مَا يُرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [الأنعام:٥١] -إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ-: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] وَكَانُوا بِلَالًا وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وَسَالِمًا مَوْلَى حُذَيْفَةَ وَصَبِيْحًا مَوْلَى أُسَيْدٍ، وَالحُلَفَاءُ: ابْنُ مَسْعُودٍ وَالمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِاللهِ الْحَنْظَلِيُّ وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِ عَمْرٍو وَمَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ وَأَشْبَاهُهُمْ، وَنَزَلَ فِي أَئِمَّةِ الْكُفْرِ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْمَوَالِي وَالْحُلَفَاءُ. ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:٥٣] فَلَمَّا نَزَلَتْ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاعْتَذَرَ مِنْ مَقَالَتِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[2] [الأنعام:٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن جرير (٩/ ٢٥٩) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٥٢) والبزار (٢١٢٩) وابن ماجه (٤١٢٧) وغيرهم وقد ذكرت ذلك مفصلًا في تحقيقي «لأخلاق حملة القرآن» تحت رقم (٥٣) وسبب ضعفه: جهالة حال أبي سعيد الأزدي وأبي الكنود.

(٢) مرسل قوي الإسناد. أخرجه الطبري (٩/ ٢٦٢-٢٦٣)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٦/ ٥٤) إلى=

حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٥٢] جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ النَّهْيِ وَجَوَابِهِ؛ تَقْرِيرًا لَهُ وَدَفْعًا لِمَا عَسَى أَنْ يُتَوَهَّمَ كَوْنُهُ مُسَوِّغًا لِطَرْدِ الْمُتَّقِينَ مِنْ أَقَاوِيلِ الطَّاعِنِينَ فِي دِينِهِمْ كَدَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ حَيْثُ قَالُوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧].

وَالْمَعْنَى: مَا عَلَيْكَ شَيْءٌ مَا مِنْ[1] حِسَابِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الْبَاطِنَةِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ؛ حَتَّى تَتَصَدَّى لَهُ وَتَبْنِي عَلَى ذَلِكَ مَا تَرَاهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَإِنَّمَا وظيفتك -حَسْبَمَا هُوَ شَأْنُ مَنْصِبِ الرِّسَالَةِ- النَّظَرُ إِلَى ظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَإِجْرَاءُ الْأَحْكَامِ عَلَى مُوجِبِهَا، وَتَفْوِيضُ الْبَوَاطِنِ وَحِسَابِهَا إِلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، وَظَوَاهِرُ هَؤُلَاءِ دُعَاة رَبِّهِمْ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ[2] أَنَّ الْمَعْنَى مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِ رِزْقِهِمْ أَيْ: مِنْ فقرهم، وَالْمُرَادُ لَا يَضُرُّكَ فَقْرُهُمْ شَيْئًا؛ لِيَصِحَّ لَكَ الْإِقْدَامُ عَلَى مَا أَرَادَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْكَ فِيهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٥٢] عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَجِيءَ بِهِ مَعَ أَنَّ الْجَوَابَ قَدْ تَمَّ بِذَلِكَ مُبَالَغَةً فِي بَيَانِ كَوْنِ انْتِفَاءِ حِسَابِهِمْ عَلَيْهِ يَنْظِمُهُ فِي سِلْكِ مَا لَا شُبْهَةَ فِيهِ أَصْلًا، وَهُوَ انْتِفَاءُ كَوْنِ حِسَابِهِ ﷺ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١]. فِي رَأْيٍ.

= ابن المنذر، ولكن المرسل مهما كانت قوته فهو من قسم الضعيف، إلا إن حصل ما يعضده ويقويه حتى يوصله إلى درجة الاحتجاج.

(١) كذا في الأصل، وكذلك في أصله الذي هو: "روح المعاني" (٥/ ٢٣٣).

(٢) وانظر: "روح المعاني" (٥/ ٢٣٣)، و"تفسير الطبري" (٩/ ٢٧٠).

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ[1]: إِنَّ الْجُمْلَتَيْنِ فِي مَعْنَى جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، تُؤَدِّي مُؤَدَّى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦١، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧]. كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا تُؤَاخَذُ أَنْتَ وَلَا هُمْ بِحِسَابِ صَاحِبِهِ، وَحِينَئِذٍ لَا بُدَّ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ. وَتُعُقِّبَ بِأَنَّهُ غَيْرُ حَقِيقٍ بِجَلَالَةِ التَّنْزِيلِ[2]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢] جَوَابٌ لِلنَّهْيِ.

٩١- إنكارهم الملائكة والوحي والرسالة والبعث

(... الْحَادِيَة وَالتِّسْعُونَ): عَدَمُ الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَةِ اللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُفَصَّلٌ فِي التَّفْسِيرِ وَكُتُبِ الْحَدِيثِ وَالْعَقَائِدِ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]. وَمِنَ الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ:

وَمَاذَا بِالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ الشِّيزَى تَزَيَّنُ بِالسَّنَامِ
وَمَاذَا بِالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ الْقَيْنَاتِ وَالشُّرْبِ الْكِرَامِ
تُحَيِّينَا السَّلَامَةَ أُمُّ بَكْرٍ ... فَهَلْ لِي بَعْدَ قَوْمِي مِنْ سَلَامِ

---

(١) في "الكشاف" (١٧/٢).

(٢) انظر: "روح المعاني" (٥/ ٢٣٣-٢٣٤).

يُحَدِّثُنَا الرَّسُولُ بِأَنْ سَنَحْيَا ... وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامِ[١]

وَقَالَ آخَرُ:

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ نَشْرٌ ... حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرُو

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ [الصافات: ١٦-١٧، الواقعة: ٤٧-٤٨]. وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى مُعْتَقَدَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَدْيَانِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

٩٢- إيمانهم بالجبت والطاغوت

(... الثَّانِيَةُ وَالتِّسْعُونَ): الْإِيمَانُ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ.

وَتَفْضِيلُ دِينِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى دِينِ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١]. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُفَصَّلًا[٢].

---

(١) أخرج البخاري في "صحيحه" (٣٩٢١): عن عائشة أنَّ أبا بكرٍ ﵁ تزوَّج امرأةً من كلبٍ، يقال لها: أمُّ بكرٍ، فلمَّا هاجر أبو بكرٍ طلَّقها، فتزوَّجها ابن عمِّها، هذا الشَّاعر، الَّذي قال هذه القصيدة، رثى كفَّار قريشٍ:

وماذا بالقليب قليب بدرٍ ... من الشِّيزى تزيَّن بالسَّنام

وماذا بالقليب قليب بدرٍ ... من القينات والشَّرب الكرام

تحيِّينا السَّلامة أمُّ بكرٍ ... وهل لي بعد قومي من سلام

يحدِّثنا الرَّسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداءٍ وهام

(٢) تحت المسألة (٥٠).

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ جَهَلَةَ الْكِتَابِيِّينَ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْمُشْرِكِينَ: أَنْتُمْ أَهْدَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا عِنْدَكُمْ خَيْرٌ مِمَّا عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ. وَتَرَى الْمُتَصَوِّفَةَ وَالْغُلَاةَ الْيَوْمَ عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ يَقُولُونَ: إِنَّ دُعَاةَ أَهْلِ الْقُبُورِ وَالْغُلَاةِ خَيْرٌ مِمَّنْ يَمْنَعُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وحُفَّاظِ السُّنَّةِ.

٩٣- كتمان الحق مع العلم به

(... الثَّالِثَةُ وَالتِّسْعُونَ): كِتْمَانُ الْحَقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ.

كَمَا حَكَى اللهُ ذَلِكَ عَنْ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَقَدْ كَتَمُوا مَا وَرَدَ فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْبَشَائِرِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِوُرُودِهَا وَذِكْرِهَا فِي كُتُبِهِمْ.

وَالْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ مُفَصَّلٌ فِي "الْجَوَابِ الصَّحِيحِ"[1] لِشَيْخِ الإِسْلَامِ فَعَلَيْكَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ كِتَابٌ لَمْ يُؤَلَّفْ مِثْلُهُ.

٩٤- القول على الله بلا علم

(... الرَّابِعَةُ وَالتِّسْعُونَ): الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ.

وَهُوَ أَسَاسُ كُلِّ فَسَادٍ وَأَصْلُ الضَّلَالِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ حَظًّا مِنْ هَذِهِ الْخَصْلَةِ الْجَاهِلِيَّةِ مُبْتَدِعَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ؛ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِي الصِّفَاتِ الإِلَهِيَّةِ بِمَا لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَأَوَّلُوا نُصُوصَ الشَّرِيعَةِ بِمَا تَهْوَاهُ أَنْفُسُهُمْ، كَمَا فَعَلَهُ الرَّازِيُّ[2] فِي كِتَابِهِ "أَسَاسُ

---

(١) "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" (٢/ ٥ وما بعدها).

(٢) محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني، أبو عبدالله الرازي، الملقب بفخر الدين، قال الذهبي: والعلامة الكبير ذو الفنون... وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة والله يعفو عنه؛ فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر، مات=

التَّقْدِيسِ»[1]، وَجَزَى اللهُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ خَيْرًا؛ فَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ وَنَقَضَ أَسَاسَهُ وَسَجَّلَ ضَلَالَهُ وَجَهَّلَهُ وَضَيَّقَ أَنْفَاسَهُ[2] ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[البقرة: ٢٥١].

٩٥- التناقض

(... الخَامِسَةُ وَالتِّسْعُونَ): التَّنَاقُضُ الْوَاضِحُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[ق:٥].

وَهَكَذَا أَهْلُ الْبِدَعِ مِنَ الْغُلَاةِ وَغَيْرِهِمْ: يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ وَيَعْمَلُونَ أَعْمَالًا تُنَاقِضُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ.

٩٦-١٠٠- الكهانة وما في حكمها

(... السَّادِسَةُ وَالتِّسْعُونَ، السَّابِعَةُ وَالتِّسْعُونَ، الثَّامِنَةُ وَالتِّسْعُونَ، التَّاسِعَةُ وَالتِّسْعُونَ، الْمِائَةُ): الْعِيَافَةُ، وَالطَّرْقُ وَالطِّيَرَةُ وَالْكَهَانَةُ وَالتَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ فِي كِتَابِنَا «بُلُوغَ الْأَرَبِ فِي أَحْوَالِ الْعَرَبِ» بِمَا لَا

= بهراة يوم عيد الفطر سنة (٦٠٦)، وله بضع وستون سنة اهـ انظر: «السير» (٢١/ ٥٠٠-٥٠١).

(١) أَلَّفَ الرازي هذا الكتاب للملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وأرسله إليه هدية، قال شيخ الإسلام في وصفه لهذا الكتاب: (هذا يتضمن تأسيس أصول الجهمية، التي جمعها أبو عبدالله الرازي في مصنفه الذي سماه: «تأسيس التقديس»؛ فإنه جمع فيه عامة حججهم، ولم أر لهم مثله، وقد خلصنا ما التبس من الحق بالباطل، في تأسيسه في «بيان تلبيس الجهمية») المقدمة (ص٢٤).

(٢) وذلك في كتابه: «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية أو نقض تأسيس الجهمية» صنفه ﷺ في نقض كتاب الرازي السابق ذكره وقد طبع «النقض» بعناية محمد بن عبدالرحمن بن القاسم.

مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَذَكَرْنَا هُنَاكَ أَوَابِدَهُمْ وَخُرَافَاتِهِمْ وَسَائِرَ ضَلَالَاتِهِمْ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا!

*****

وَغَالِبُ مَسَائِلِ الْأَصْلِ رُءُوسُ مَسَائِلَ فِي كِتَابِ «اقْتِضَاءِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ»[1] وَمَنْ أَرَادَ التَّفْصِيلَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ.

وَهَذَا آخِرُ مَا أَرَدْنَا شَرْحَهُ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي أَبْطَلَهَا الْإِسْلَامُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلِيِّ الْإِنْعَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَيْرِ الْأَنَامِ، وَمِصْبَاحِ الظَّلَامِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

فِي ٥ ذِي الْحِجَّةِ وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ سَنَةِ ١٣٢٥هـ.

---

(١) كتاب: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد طبع مرارًا وأحسن، طبعاته طبعة ناصر العقل.

الفهرس



شرح
مسائل الجاهلية

تأليف
أبي المعالي محمود شكري الآلوسي

تحقيق
أبي الحسن علي بن أحمد بن حسن الرازحي

دار الآثار

الوكيل داخل جمهورية مصر العربية دار المستقبل للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة عين شمس الشرقية هاتف 0020125102001 فاكس 0020226429667